علي جابر الفيفي

عبق أيام

نافذة على أيام التابعين

دار الحضارة

الطبعة الأولى

عبق أيام

نافذة على أيام التابعين

علي جابر الفيفي

دار الحضارة

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى تلك الأيام..

إلى أولئك الرجال..

إلى ذلك العبق..

ذُمَّ المنازلَ بعد منزلةِ اللِّوى
والعيشَ بعد أولئكَ الأيّامِ

المقدّمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وصحبه ومن والاه.. أمّا بعد:

فهذه كلماتهم.. وهذه أيامهم.. وهذا عبقهم!

أيام التابعين المضمّخة بذلك العبق الفريد، وتلك المشاعر الاستثنائية! وكأنّي بشوارعهم العتيقة وفوانيسهم المعلّقة على أبواب مساجدهم الطينية، وكأني بخطواتهم المخبتة ونوافذهم المشرَعة على عهد الصحابة.. كلها تنبعث عبر كلماتهم ومواعظهم وصدقهم..

جمعتُ شيئًا من أقوالهم وشؤونهم أحسست بحياتهم في قلبي، وذقت صدقهم في نفسي.. وما تركته أكثر!

ولـم أرد بالتابعيـن إلا كلّ مـن تبـع الصحابة بإحسـان، سـواء رآهم أم لم يرهم! عايشـهم بجسـده أم بروحه، سمع كلماتهم أم عمل بها.. كلّهم هنا تابعون.

جمعنا الله بهم في جنّات النعيم..

✍ **علي بن جابر الفيفي**

٢٧ محرم ١٤٤٤هـ

الصـادقـون

فمن أظهر شيئًا من التزين والتجمّل والخداع، وقلبه صِفرٌ منه، عامله الله بنقيض قصده، وفضحه بأن قلب الزين الذي أظهره إلى شين، والجمال الذي ادعاه إلى قبح..

الصادقون

لما تراءيت أيام التابعين فيما قرأته عنهم، رأيت الأعاجيب، وشاهدت ما يستدعي الاستغراب، ولكنّ شيئًا رأيته وسمعته ووعيته في تلك الأيام العتيقة، كان كالوشم في كل شأنهم! يشعّ من النوافذ، ويتوهّج من خلال مصابيح الطرقات وتلمحه كأنداء الفجر في أزقّة الأحياء القديمة، إنّه الصدق!

كل شيء في ذلك الزمن يدفع باتجاه الصدق: صدق اللسان، وصدق القلب، وصدق الأفعال... وصدق الأنفاس!

راهب في محراب الصدق

وكأن التابعين رحمهم الله اجتمعوا ذات يوم في بيت الفضيل بن عياض، واتفقوا على توكيله؛ ليكونَ الناطقَ الرسمي باسمهم جميعًا في هذا الباب، باب الصدق، وبايعوه على إمارة الصدق في ذلك الزمن! فإنك تجد له من البيان والتفصيل

والولع بهذا الباب ما لا تجده عند غيره، وهم في الصدق أئمة كلهم، ولكنّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أوتي لسانًا معبرًا عن خلجات النفس المؤمنة، ونبضات القلب الصادق!

يقول عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ واصفًا الفضيلَ وعلاقته الوطيدة مع الصدق: «**إن الفضيل بن عياض صَدَقَ الله، فأجرى الحكمة على لسانه**»(١)، والعجيب أن الحكمة التي أُجريت على لسانه عليها خاتم الصدق، وكأنّه لا يجيد الحديث إلا عن الصدق وما إليه من الشؤون!

ولنستهلّ حديثنا عن الفضيل والصدق بهذه القصّة الكاشفة، يقول أبو رَوح حاتم بن يوسف: أتيت باب الفضيل بن عياض فسلمت عليه، فقلت: يا أبا علي معي خمسة أحاديث، إن رأيت أن تأذَنَ لي، فأقرَأَ عليك. فقال لي: «**اقرأ**» فقرأت فإذا هي ستةٌ! فقال لي: «**أفٍّ، قم يا بُني تعلّم الصدق، ثم اكتب الحديث**»(٢).

فمع أن الناس اعتادوا أن يتساهلوا فيما فوق وتحت الأعداد التي تكون من مضاعفات العدد خمسة، وعشرة؛ إلا

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٨/ ٤٢٥).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٨/ ٤٣٠).

أن الفضيل له صرامة في هذا الباب، لأنّه قرر أن يتبتّل في محراب الصدق، وألا يسمح لذرة كذب أن تفسد عليه نقاء محرابه!

إن الفرق اليسير بين الخمسة والستة الذي يجعل الناس لا يتوخَّون الدقة في ذكر أحدهما مكان الآخر لا يسمح للفضيل أن يتغاضى ويتسمّح في هذا الباب!

وكأنّي ألمحه يُعلي صوته في ذلك الزمن المكتظ بالصادقين: «**ما من مُضغةٍ أحبَّ إلى الله من لسانٍ صدوق، وما من مضغة أبغضَ إلى الله من لسانٍ كذوب**» هكذا يقولها، ليفهم المُقْدِم على عتبة العبودية بأي شيء يبدأ في هذا العالم النوراني!

وإذا أردت أن يلتفت إليك الفضيل فلا تسعَ إلى أن ترتديَ فاخر الثياب، وباذخَ الزينة! يكفي أن تكون صادقًا لتلفِتَ نظره رَحِمَهُ اللَّهُ ! فهذا عبد الصمد بن يزيد يخبرنا أنه سمع الفضيل بن عياض يقول: «**لم يتزينِ الناسُ بشيءٍ أفضلَ من الصدق**»[1].

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٨/ ٤٢٦)..

فالصدق ليس فعلًا كلاميًّا؛ بل هو زينة جسدية، وبهاء باطني وظاهري!

وتراه رحمه الله وقد فُجع بمعنًى قرآنيٍّ عجيب، يقرأ بخشوع: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٨] فيلمح ملمحًا مخيفًا من الآية، فيقول متدبرًا: «**الله عَزَّ وَجَلَّ يسأل الصادقين عن صدقهم! فكيف بالكذّابين المساكين؟ ثم يبكي**»(١).

وكأني بصدى بكائه يعمّ أرجاء ذلك الزمن النقي!

وما له لا يبكي؟ وقد استعدّ بالصدق لذلك اليوم العصيب، فإذا بالصدق يكون سببًا في أن يُسأل الإنسان، وأن يُمحَّصَ في يوم التمحيص الشديد، وأن يُناقَشَ في يوم النقاش الصعب!

لا تتعب!

وهذا مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ يأتي ليحلل ثنائية الصدق والكذب في نفس الإنسان فيقول: «**الصدق والكذب يعتركان في القلب حتى يُخرج أحدُهما صاحبَه**»!(٢).

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/١٠٨).

(٢) ذم الكذب ـ من الصمت وآداب اللسان (ص: ٣٢).

فهما كما يقول المناطقة: نقيضان، لا يجتمعان ولا يرتفعان وإنّما يتدافعان، فيدفع أحدهما الآخر! فلا يمكن لقلب أن يحوي الصدق والكذب في آن، فوجود هذا ذهاب ذاك.. وهو كما ترى عمق في الفكرة، وليس ذاك بعجيب على الصادق مالك بن دينار!

وها هو في سياق مقارب يطلق حكمة أخرى بخصوص الصدق، حكمة من النوع اللاذع، فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**قولوا لمن لم يكن صادقًا: لا تتعب**»![1]، لا يشغل نفسه بحفظ العلم، وارتياد مجالس العلماء؛ لأن كل عمله هباء، فالعبادة والعلم وشؤون الآخرة مأخذها الصدق، وبدون الصدق لا سبيل إلى شيء منها، يشرح هذا ويبيّنه وكيع بن الجرّاح بأدق عبارة، وأوضح إشارة، فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**هذه بضاعة لا يرتفع فيها إلا صادق**»[2].

إذن، قولوا لمن لم يك صادقًا: «**لا تتعب!**» ولا يكلّف نفسه كثيرًا، فلن يصل إلى مُراده.

---

(١) تلبيس إبليس (ص: ١٣٧).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٣٧٠).

وهـذا الأوزاعي يجلّـي جانبًا آخر من جوانـب هذه الفكرة فيقول: «**بلغني أنه ما وعـظ رجل قومًا بموعظة لا يريد بها وجه الله إلا زلّت عنه القلوب كما يزلّ الماءُ عن الصفا**»(١).

أتخيلت المطر وهو ينزل علـى حجر أملس فيزل عنه ذات اليمين وذات الشـمال، ويبقى الحجر حجرًا لا ينفذ إليه الماء؟ كذلك الموعظة التي قالها كاذب في نيّته خاطئ في قصده تراها تزل عن قلوب العباد، فلا ينفذ منها إلى قلوبهم كلمة!

أنـا أكـذب؟

مُنهَك الخطوات يمشي وحده في ذلك الشارع العتيق، لا يكلّم أحدًا ولا يكلمه أحد! إنّه بشر الحافي المشغول بالله واليوم الآخر.

ها هو يهمس ليسمعه من يسمعه من المارّة: «**من عامل الله بالصدق استوحش من الناس**»(٢).

لأن الكذب بشع جدًّا، ولكن لا يرى بشاعته إلا الصادقون! فتراهم يستوحشـون من الناس، لأن الكذب بضاعة بات الناس يبيعونها ويشترونها ويقضون حياتهم في بهوها ورَدْهاتها!

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ١٤١).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٣٤٧).

وهـذا مطرّف بـن عبد الله بـن الشِّـخير يزيدنـا فهمًـا لتلك البشاعة التي يلمحونها في الكذب فيقول: «**ما يسرّني أني كذبت كذبة وأن لي الدنيا وما فيها**»(١).

يا لها من نفوس ذات رهافة عالية، وحذق خاص بما ينفعها ويضرها!

وهـذه قصة يرويهـا ابن عسـاكر في تاريـخ دمشـق تبيّن حجم بشـاعة الكـذب فـي أعينهـم رحمهـم الله! يحكـي أنَّ ابـن شـهاب الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ دخل على الخليفة هشام بن عبد الملك فبادره هشام بسـؤال: «**يا ابـن شـهاب مـن الـذي تولـى كِبْـره منهـم؟ فقـال لـه: «عبد الله بن أُبي» فقال لـه: كذبت! هو «علي بن أبـي طالب». فقال له: أنا أكذب لا أبًا لك! فوالله لو ناداني منادٍ من السماء: إنّ الله أحلّ الكذب ما كذبت**»(٢).

يقـول بغضب للخليفـة: أنـا أكـذب لا أبـا لـك؟ أتـرى ماذا صنـع به الصـدق؟ لقـد حوّله إلـى بطل يـزأر في وجه الخليفة!

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤/ ١٩٥).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٥/ ٣٧١).

وهنا تتجلى العظمة، ويظهر الصدق وما يعمل الصدق، يقول الرواة: فما زال هشام بن عبد الملك معظِّمًا لابن شهاب بعد ذلك!

لحن العمل

ولم يكونوا يتورعون عن كذب اللسان ليقعوا في كذب الفعال! بل كانوا منه أشد تحرّزًا، وعنه أكثر نفورًا..

فهذا سفيان بن عيينة يقول: «**من تزين للناس بشيء يعلم الله تعالى منه غير ذلك؛ شانه الله**»[1] فهو يعتقد أن إظهار شيء ليس هناك رصيد يوازيه في الباطن، نوع من التضخّم المرضي الذي يستوجب الفضيحة من الله! وهو يستلهم حكمته من الأثر النبوي: «**الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ، كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ**»[2] فالتشبّع في الحديث هو التزيّن في كلمة ابن عيينة..

فمن أظهر شيئًا من التزين والتجمّل والخداع، وقلبه صفر منه، عامله الله بنقيض قصده، وفضحه، بأنْ قَلَب الزَّين الذي أظهره إلى شَين، والجمالَ الذي ادّعاه إلى قُبح!

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٢٧١).

(٢) صحيح مسلم (٣/ ١٦٨١).

وتـرى مالك بـن دينـار كعادته فـي اقتنـاص الفكـرة يوجّه عدسـته إلى كذب الفِعَال فيقول: «**تلقى الرجل وما يَلْحن حرفًا وعمله كله لحن!**»[1].

تراه يتقعر في كلامه فلا يكاد يخطئ، وهو في أفعاله يتعثر، فلا يـكاد يصيـب! ينصـب المرفـوع مـن الأعمـال، ويخفـض المنصوب من الفعال!

لجـام التقـوى

ولشـدّة احتفالهم وولعهم بالصدق بـات ميزانهم فيه ميزان الذهب! فهم كما نعبّر بدارجتنا (لا يفوّتون) كلمة مسّـها كذب، أو شابها ادعاء!

وها هو الفضيل يعود إلينا ليملينا من قراطيسـه التي اكتتبها عـن الصـدق فيقـول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**لا تـؤاخِ إنسـانًا إذا غضـب كَذَب عليـك**»[2]، كل النـاس يغضبون، وقليـل منهم من يُلجم لسـانه بلجام التقـوى، فلا يكذب عليك! ولا يصفـك بما ليس فيك.. ومثل هذا الإنسان النادر جدًّا هو من يستحق أن تتخذه أخًا..

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٣٨٣).

(٢) شعب الإيمان (١٢/ ٦٨).

وحتى تعلم أنّه رَحِمَهُ اللَّهُ لم يكـن يُنظِّر، وأن ما يقوله ناتج عن سنوات من الخبرة في هذا المجال، اسمعه رَحِمَهُ اللَّهُ وهو يقول: «**أنا منذ عشرين سـنة أطلب رفيقًا إذا غضِبَ لم يكذِبْ عليّ**»[1] ويا له من بحث مُضنٍ، وتفتيش مُرهق استغرق عقدين من الزمن! للبحث عن شـخص يحمـل صفة نـادرة! وما ذلـك إلا لرهافة تعيش في روح الفضيل ويعيش في روحها! فقد طوّر في نفسه حاسّـة تتيقّظ وتلحظ مثقال الذر من الكذب! فتُوقِف أي علاقة كانت في طريقها أن تتم!

رحمهم الله ورحم أرواحهم الصادقة، ونفوسـهم المرهفة، وأيامهم التي تشبههم في الصدق والنقاء..

---

(١) تاريخ بغداد ت بشار (١٤/ ٣٦٣).

استبشاع الذات

هكذا كانوا يمحون الدنيا من أنفسهم،

وينفضون تراب الأرض عن هالات السماء..

استبشاع الذات

كانوا يرون أنفسهم بشعة، لا شيء فيها يلفت النظر، ازدراء للنفس لا شيء يشبهه، واحتقار للعمل لا مثيل له!

أطفؤوا في أنفسهم تلك الرغبة في أن يُذكَروا فيُشكَروا! أحرقوا تلك الفلاشات التي تتوجّه عادة إلى حياة العمالقة، وغسلوا معنى العظمة في نفوسهم.. فباتت حياتهم وقد تكللها الهدوء، والخفوت، والتواضع!

كانوا يسألون الله الذكر الخامل، ويهربون من البهرج، ويغضبون إذا ما ذُكِروا على الملأ بالخير!

كلما اكتظت الجموع في محفل ما للهتاف لهم، تراهم يتسللون من الأبواب الخلفية للانسحاب عنهم! يعشقون العتمة الاجتماعيّة، ويحبون الخفوت، ويميلون إلى العيش في الظل.. ذلك الظل الهادئ البارد!

سخرية الشيطان

كان الربيع بن خُثَيم إذا قيل له: كيف أصبحتم؟ قال: «**ضعفاء مذنبين، نأكل أرزاقنا، وننتظر آجالنا**»[1].

من المؤكد أن كلمة «**ضعفاء مذنبين**» لم تأتِ من باب الزخرفة الكلاميّة، وإظهار التقلل! فهذا شأنهم، وما يعتقدونه رحمهم الله، ولم يكن الربيع بن خثيم بِدْعًا من التابعين، ولم يكن كلامه استثناء ولا خروجًا عن النص!

فقد كانوا رضوان الله عليهم أبعد الناس عن أن يغترّوا بأعمالهم، أو أن يروا لأنفسهم مقامًا محمودًا في الدنيا!

أخذ أحدهم يثني على مسلم بن يسار؛ من حيث قلَّةُ التفاته في الصلاة، فلم يدَعْ مسلمًا وثناءَه؛ بل قال له: «**وما يدريكم أين قلبي؟**»[2].

كيف تُثني على شخص ليس معك وثيقة إفصاح عما يجرِي في قلبه! إنّ معترك الرياء أشرس من أن ينجوَ منه عابدٌ بسهولة، فدَعْ عنك بذل ممادحك بسخاء! فالأمر أهون من ذلك..

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤/ ٢٥٩).

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٠٤).

أما ابن مُحَيْرِيز رَحِمَهُ اللهُ فـكان يُنهي خُطَب تبجيل الآخرين له بعبـارة ذات بُعْـدٍ واحـد، بُعد الصدق مـع النفـس! فيقول لمن يمدحـه: «**وما يدريـك؟ وما عِلْمُـك؟**»[1] ما هـو مصـدر هـذا المديح؟ وما يدريك لعل الله كتبني في أم الكتاب شقيًّا؟

وهذا الفضيل بن عياض يقول: «**لو حلفت أني مُراءٍ، أحب إليّ من أن أحلف أني لست بمراء**»[2].

ليسـت القضيّة في شـعوره بأنّه مُراءٍ، القضيّة في إعلانه عن ذلك الشـعور دون أيّ غضاضة! هل سـمعت بشـيء اسـمه عزّة النفس وكرامتهـا وكبرياؤها؟ نعم ذلك الشـيء لديهـم مثل فتاتة قشٍّ يابس، رفعها أحدهم على راحته، ثم نفخها في يوم عاصف!

وهنا ميمون بن مهران يمسك قلمًا عريضًا ويكتبها في فضاء ذلك الزمن: «**ما عرضتُ قولي على عملي إلا وجدت من نفسي اعتراضًا**»[3].

دائمًا هنـاك مسـافة يلمحونها بيـن مبادئهم وسـلوكهم! هناك هامش انكسار، وفراغ يكنسون فيه الاعتداد بالنفس والثقة بالعمل!

---

(١) صفة الصفوة (٢/ ٣٦٩).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٨/ ٣٨٢).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٤/ ٨٦).

جاء رجل إلى العلاء بن زياد مبشّرًا إياه برؤيا رآها له! فقد رأى أنّه من أهل الجنّة! فقال له العلاء: «**ويحك، أما وجد الشيطان أحدًا يسخر به غيري وغيرك؟**»[1].

إنها أقرب لأن تكون حُلمًا شيطانيًّا يهدف إلى طمأنته، وصدّه عن أن يعمل للآخرة! هذا ما يعتقده العلاء!

هكذا كانوا يمحون الدنيا من أنفسهم، وينفضون تراب الأرض عن هالات السماء..

ذباب!

كانوا رحمهم الله قد وضعوا أنفسهم في أسفل ما يمكن أن يضع المرء نفسه، وهذا سبب من أسباب أن رفعهم الله رفعة تليق بنفوسهم الزكية!

يقول أبو سليمان الداراني في وصف عجيب لحالة ازدراء الذات: «**لو اجتمع الخلق جميعًا على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي ما قدروا على ذلك**»[2].

ليس في خيال أبي سليمان صورة أبشع من اللوحة التي

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٠٦).

(٢) صفة الصفوة (٢/ ٣٨٤).

رسمها هو لنفسه! فلا يمكن لإنسان أن يرسمه على صورة أبشع من لوحته تلك! إن صلواته ودعواته وأعماله لم تفلح في وضع مساحيقها على ذاته التي يتخيّلها أبشع ما تكون! وهذا الشعور هو الذي يجعلهم رحمهم الله يَصِلون إلى غاية الجمال والبهاء والعظمة! فهذا طريق لا تضيء فيه إلا أوجه أولئك الذين يعتقدون قتامتهم وسوادهم!

أحدهم يتفقّد نفسه دائمًا؛ خشيةَ أن يمسخه الله كلبًا، والآخر ينظر إلى السماء مستبطئًا الحجارة أن تنزل عليه! وكان كل ذلك يتم بصدق لا مبالغة فيه!

هذا مُوَرِّقٌ العِجْليُّ يرفع صوته بما يعتقده في نفسه: «**لو كان الناس يرون فينا ما يرى قومنا لما قعدوا إلينا**»[1].

فالقضية لديه لا تعدو كون الناس لا يعرفونه على حقيقته، كما يعرفه اللصيقون به، والقريبون منه، أولئك الذين اطلعوا على دسائسه، وعرفوا شيئًا من وساوسه!

والحسن البصري بلغته اللاذعة يقولها بكل جُرأة: «**لقد أدركت أقوامًا ما أنا عندهم إلا لص**»[2].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٢٣٦).

(٢) صفة الصفوة (٢/ ١٣٨).

سامحك الله يا شيخ البصرة وإمام التابعين! إذا كنت لصًا، فماذا يكون من بعدك؟ وأين ألقيت بشعور الأنفة والمكانة في مثل هذا التصريح اللاذع؟

وهذا عمران الخزاعي يصف سعيد بن المسيّب في هذه الجزئيّة فيقول: «**إني أرى أن نفس سعيد كانت أهوَنَ عليه في ذات الله من نفس ذُباب**»[1].

يا لَلعظمةِ! أرأيتم كيف كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يهين نفسه؟ حتى بات الذباب في أعين أصحابه أعظم قدرًا عندهم من نفس سعيد عند سعيد! رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ضعيف متضعف!

أما ابن المبارك فيقعّد لهذه النظرة فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**إذا عرف الرجل قدر نفسه يصير عند نفسه أذَلَّ من الكلب**»[2].

ولم يكن ذلك إلا لأنّهم عرفوا شيئًا من عظمة الله وجلال الله وحق الله، وقارنوا بينه وبين ما يعملونه، فوجدوا أنّ ما يعملونه لا يُعدّ شيئًا، فاحتقروا أنفسهم! ولا يعظّم نفسه إلا من خَفَتَ في قلبه استشعارُ عظمة الرب سبحانه!

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤/ ٢٢٥).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ١٦٨).

ذهاب وعودة

يوسف بن أسباط لا يلفته البهرج الكاذب، ولا يضيف إلى نفسه ما يقوله الناس عنه! وهذه رحلة مضنية يقطعها ذهابًا، ثم يلغيها إيابًا لأجل الحفاظ على قلبه ونقائه!

فها هو رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحمل جرابه على عنقه ويسير من مكان اسمه «سنح» متجهًا إلى «المِصِّيصة» فما إن وصل إلى وجهته ورآه أهل تلك الناحية حتى قام أهل الحوانيت والمتاجر بالسلام عليه وتعظيم شأنه، فطرح جرابه ودخلَ مسجدًا للصلاة، فأحدق به الناس بعد الصلاة!

أترون أنّ يوسف أعجبه ذلك؟ هل ارتاح لذلك التعظيم، وتلك المكانة التي نصّبوه فيها؟ لقد احتمل جرابه وعاد من حيث أتى؛ حفاظًا على قلبه المتواضع، ونظرته لنفسه! ثم أخبر أنّ صفاء قلبه ونقاءه لم يعد إليه سنين عددًا! بسبب ذلك الاحتفاء والتوقير الذي اعتقد أنّه لا يستحقه![1]

وشدّة النقاء تجعل القلب يتيقظ يقظة خاصة، فيلحظ أي طارئ يطرأ وإن قلّ وإن ودق! وهذا ما جعل يوسف يفتقد صفاء قلبه!

---

(١) القصة في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٢٤٤).

وإن شئت أن أفجأك بما هو أعجب، فهذا سفيان الثوري يخبرنا بعجيبته فيقول: «**إني لألقى الأخ من الإخوان اللقاءة؛ فأكون بها غافلًا شهرًا**»[1].

لا تطل التعجب، ولا تَقِسْهم على نفسك ولا على من تعرف، فإن خامة أرواحهم من نوع فريد، قد نقضي أعمارنا دون أن نقع على شيء قريب من ذلك!

خمسة أشهر

إن أهم ما كان يشغلهم هو أعمالهم، أما ظلال الأعمال وصداها وما يقوله الناس وما لا يقولونه فلا يعنيهم أبدًا..

كانوا يشتغلون على تلك الأعمال وتلك النيّات حتى يُصلحونها، فتنقضي أعمارهم في ذلك الانشغال وتلك المجاهدات!

يقول سفيان الثوري ذلك الهارب من الرياء، والخائف على قلبه: «**ما عالجت شيئًا أشدَّ عليَّ من نفسي**»[2].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٥٣).

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٧/ ٢٥٨).

إنهم يصارحونك بقضاياهم، فلا يخبَؤونها ليَعْظُموا في عينك، لأنّ هذه العظمة الكاذبة ليس مما يهتمون له، بل لا يدركون لها وجودًا من الأساس!

وفي صراحة أكثر حدّة يقول سفيان: «**حُرمت قيامَ الليل بذنب أحدثته، خمسة أشهر**»(١).

وأعطني ممن تعرفهم عالمًا، لا بل طالب علم، بل واحدًا من عموم المسلمين يصرّح بمثل هذا التصريح! لن تجد، أتدري لماذا؟ شغلتنا المكانة عن حقائقنا!

وفي ذات المسألة يقول ابن سيرين ذاك الذي جعل نفسه تحت مجهر الملاحظة، فيرى دقيقها وجليلها: «**قلت مرة لرجل: يا مفلس، فعوقبت**»(٢).

ليسوا ملائكة، هم يخطئون كما يخطئ البشر، ولكنّهم يمسكون تلك الأخطاء بأطراف أصابعهم، ثم يضعونها تحت مجهر التأمّل! ليعلموا كيف كانوا قبلها، وكيف باتوا بعدها، وماذا أحدثت في نفوسهم، وماذا صنعت في نظرتهم للحياة!

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ١٧).

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤/ ٦١٦).

فيخرجون من ذنوبهم بنَقاءٍ أشدَّ من ذلك الذي يخرج به غيرهم من طاعاتهم!

وصاحبنا الأول يوسف بن أسباط يفاجئنا بحقيقة عجيبة، وتجربة فريدة فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «**تعلموا صحة العمل من سُقمه؛ فإني تعلمته في اثنين وعشرين سنة**»[1].

لك أن تعيد قراءة النص لتتأكّد من عدد السنوات! نعم اثنان وعشرون سنة! إنهم يغرفون من السنوات غرفًا ليصنعوا الصدق داخلهم! يبذلون من أعمارهم بسخاء ليصلوا إلى شاطئ الحقيقة! يتعبون حقًّا؛ ليفهموا كيف تصح لهم عبادتهم وأعمالهم! أما ما يقوله الناس عنهم! فهباء.. أو أقل من الهباء..

هذه معارفهم التي أتقنوها، وهذه جامعاتهم التي تخرّجوا فيها! جامعات الإخلاص، ومراقبة الذات، وتصحيح النيّات!

(١) صفة الصفوة (٢/٤٠٨).

إلا ليعبدون

القضية لا تعدو ركعتين يصليهما الرجل،

لا تعدو قنديل صلاة يضعه على الطاولة ثم يخرج!

إلا ليعبدون

إذا أردنا أن ندلف إلى محراب العبادة لدى أولئك الرجال فلا بد أن تدهمنا الدهشة، وتحيط بنا الغرابة؛ إذ إنَّهم كانوا يعيشون وكأنّ الدنيا وما إليها لا تعنيهم، إنما يعنيهم أن يقوموا لله قانتين!

ما أجلَّها من ليالٍ! وما أجملها من أيامٍ تلك التي تكون عبادة الله مبدؤها ومنتهاها! فالمؤمن شعاره السجادة، وصديقه المصحف، وعادته الصيام، وهِجِّيراه ذكر الله قائمًا وقاعدًا وعلى جنبه..

شجاعة

ولهم رحمهم الله شؤون في تذليل أمر العبادة، وحث الناس عليها، فمن ذلك بيان عظم قدر العابد، وأنّه عملة نادرة فهذا مُوَرِّق العِجْلي رَحِمَهُ اللهُ يقول: «**المتمسك بطاعة الله إذا جبن الناس عنها، كالكارّ بعد الفارّ**»[1].

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٤٧).

فالمتهاونون عن العبادة فارّون هاربون جبناء، والمتمسّك بطاعة الله وعبادته هو وحده الشجاع، حامل لواء الثبات!

غبن

ومن تلك الشؤون ما ذهب إليه ميمون بن مهران من التركيز على الإخلاص الذي يكثّر القليل ويعظّم الصغير! فها هو يوجّه النظر إلى زاوية عجيبة، فهو يفترض أن الأعمال قليلة مهما كثرت، فيقول: «**إن أعمالكم قليلة، فأخلصوا هذا القليل**»[1].

فمن الغبن أن يجمع المرء بين القليل وغير المخلص! فلا حلَّ والقلة لازمة إلا بإخلاص هذا القليل!

مآل

ومن تلك الشؤون ذلك الربط الواضح عندهم بين أمر العبادة والعمل في الدنيا، ومنزلة العبد عند الله في الآخرة! فتغدو الأمور ذات جلاء ووضوح عند الناس كافّة! فهذا ميمون بن مهران يظهر مرّة أخرى فيقول: «**من سره أن يعلم ما منزلته غدًا، فلْيَنظُرْ ما عمَلُه في الدنيا، فعليه ينزل**»[2].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٤/ ٩٢).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٤/ ٩١).

فعمل الجنة هو العمل بما أمر الله به، والانتهاء عما نهى عنه، فلا يمكن أن يكون عملك للجنة ومآلك إلى النار، ولا أن يكون عملك ـ والعياذ بالله ـ للنار، ومآلك إلى الجنة! هذا ما ينبغي على المؤمن استحضاره، أما الاستثناءات التي لا يعلم المؤمن أتشمله أم لا، فلا يتكئ عليها، فإن أتت برحمته سبحانه فالحمد لله، وإلا فقد أبان الله تعالى لنا المنهج، وحدّ الحدود، وأوضح المحجّة! وعليها يكون العمل.

الإقالة

ومن تلك الشؤون ما كان يقوله العلاء بن زياد رَحِمَهُ ٱللَّهُ واعظًا ومذكرًا: «**ليُنزل أحدُكم نفسَه أنّه حضَرَهُ الموتُ فاستقال ربّه تعالى نفسه فأقاله، فليعملْ بطاعة الله عَزَّ وَجَلَّ**»[1].

ذهب العلاء إلى فكرة عجيبة ونادرة، مفادها أن الإنسان يوم القيامة يتمنى أن يعود إلى الدنيا فيعمل، ولكن ذلك لن يكون! فأتى رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى هذه الفكرة وقال: هب أنّ القيامة قامت، وأنك طلبت ربك العودة لزيادة العمل، وأن الله تعالى قد أقالك وأعادك للدنيا، وها أنت الآن في الدنيا،

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٠٧).

فاعمل للآخرة! وهذا كلام جدّ عزيز، يصنع في النفس ألونًا من التحفيز!

الاحتـواء

ومن تلك الشؤون إثارة خيالات القبر في النفس، وكيف أن الأعمال لها أنس في تلك الحفرة! يقـول في هذا المعنى ثابت البُناني رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأحسـن كثيرًا حين قال: «**إذا وُضـع العبد المؤمن في قبره احتوته أعماله الصالحة**»[1].

صلاتـه وصيامه وصدقتـه وتلاوته.. وسـائر أعمالـه تضمّه وتصونـه عـن أهوال ذلـك المـكان المظلـم، فيجد فيها أنسـه، ونوره، ورَوحه وريحانه.

وما أعجزهـا من لحظاتٍ! تلك التـي لا يمكنك فيها أن تقول شيئًا، ولا أن تصنع شـيئًا، وها هو ثابت البناني ينبهك قبـل أن تصل إلى ذلك المـكان، وتلك الحالـة إلى اصطناع رفيقـك، واسـتجلاب أنيسـك، أعمـالًا صالحـة تحوطـك وتؤنسك في قبرك!

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٣٢٥).

القنديـل

أما بشـر الحافي فيأتي فتأتي معه البسـاطة العميقة.. فيقول عليـه رحمـات الله تَتْـرى: «**ما خلّـف رجل فـي بيتـه أفضل من ركعتين يصليهما**»[1].

فيسـكب على فكـرة العبـادة التـي يتصوّرها البعـض عملًا مضنيًا، يسـكب عليها هدوءًا وسـكينة، القضية لا تعدو ركعتين يصليهما الرجل، لا تعـدو قنديل صلاة يضعه علـى الطاولة ثم يخرج! ما أجملها وأهدأها وأضوأها من فكرة!

الحائـط

ويأتي عبد الله الرازي ليشرح لنا قصّة حلاوة العبادة، وكيف تغدو شـيئًا محببًـا لا يمكن للعبـد تركه فيقـول فيمـا ينقله عنه مالك بن دينـار: «**إنْ سَـرّك أن تجدَ حلاوة العبـادة، وتبلغ ذروة سنامها؛ فاجعل بينك وبين شـهوات الدنيا حائطًا من حديد**»[2]، ولـم يصـف ذلك الحاجز بأنّـه حائطٌ ثم حديـديٌّ إلا لأنّ هناك الكثيـر يصنـع بينـه وبين الشـهوات حاجـزًا، ولكنه مـن قماش

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٣٤١).

(٢) ذم الدنيا (ص: ٤٤).

تخفقه الريح! فتراه يصدِف عن الشـهوة ما شاء الله، فإذا نازعته نفسـه، اقترب مـن الحاجـز وحرّكه بيـده! فلا بد مـن أن يكون حائطًـا حديديًـا؛ حتى تقطـع به الأمل فـي العودة إلـى حياض الشـهوة، سـاعتها سـتذوق للطاعة حلاوة، ولقيام الليـل مذاقًا، ولتلاوة القرآن طعمًا.

فبهـذا ومثله كانوا رحمهـم الله يُلينون من شـأن العبادة في نفـوس النـاس، ويحرّكون فـي حياتهم حـبّ العمـل لله والدار الآخرة، فاستنقذوا من استنقذوا من لفح الشهوات، وحبّ الدنيا والتهافت على أعتابها.

إلا هـــو

الدنيا بمجملها لا تستحق لديهم أن تُطلب،
لا من الله سبحانه، ولا من الناس!

إلا هــو

كانوا لا يطلبون الدنيا بالدين، بـل بلغ بهم أنّهم لا يطلبون الدنيـا بالدنيـا! فالدنيـا بمجملها لا تسـتحق لديهـم أن تُطلب، لا من الله سبحانه، ولا من الناس!

كانوا رحمهـم الله لا يريدون مـن الدنيـا إلا الله، والدار الآخرة، لأنه سـبحانه المعبـود، فقد بات فـي قلوبهم أعظم مقصود.

هذا نهجهم، وهذه طريقتهم رحمهم الله..

الرغبة القبيحة

يقول الراوي: خرج عبد الله بن مُحَيْريز (العابد الزاهد) إلى خيّاط يشـتري منه ثوبًا، والخيـاط لا يعرفه قـال: وعند الخياط رجل يعرف عبد الله فقال: بكم هـذا الثوب؟ قال الخياط: بكذا وكذا، فقال الرجل الذي يعرفه للخياط: أحسن إلى ابن مُحَيْريز!

فقـال ابن مُحَيْريز: «**إنما جئت أشـتري بمالي ولم أجئ أشـتري بديني**» فقام، ولم يشترِ شيئًا![1].

جعْـل الديـن سـلعة للمقايضة أسـلوب يتقنـه أبنـاء الدنيا، أولئك الذين لا يرجون لله وقارًا! وابن محيريز رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يكن من هذا النوع، فهو لم يتقرب إلى الله بالطاعة والعبادة، لتكون تلك الطاعات ثمنًا لثوب يلبسه، أو طعام يشتريه، أو بيت يسكنه!

ويا لعِظَم ما قال سـفيان حين رأى من يمزج الدنيا والآخرة في إناء واحد: «**إن أقبح الرغبة أن تطلب الدنيا بعمل الآخرة**»[2]، لا أقبح من ذلك عند سفيان الثوري، وعند جيل سفيان الثوري..

أمـا الفضيـل فبتعبيـره السـاخر يأتينـا بصـورة جدّ معبـرة فيقـول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «**لأنْ أطلُبَ الدنيا بطبل ومزمـار أحبُّ إليَّ من أن أطلبها بالعبادة**»![3].

ولعلك تلحظ غرابـة صورة ذلك الذي يطلـب الدنيا بطبل ومزمـار! وانطواءهـا على قدر مـن الكوميديـا السـوداء، والتي

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ١٣٨).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٣٤٣).

(٣) صفة الصفوة (١/ ٤٣٠).

تذكرنا بـروح مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ التـي يودعها بعض مقولاته، كتلـك التي يحدثنـا فيها عن أذنـاب المنافقين التـي تزدحم بها الشوارع![1]، ولعلهم رحمهم الله يصلون إلى درجة متقدمة من استبشاع بعض المواقف، فلا يمكنهم التعبير عنها إلا بشيء من السخرية اللاذعة!

وهذا معنًى استطاع الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما بعد أن يصوغه أدق صياغـة، وأن يحوّلـه إلـى وصـف دقيق لأولئـك الذين يشترون الدنيا بدينهم! فقد سأله سـائل: مَـن السَّفِلةُ؟ فقـال: «**من أَكل بِدِينِهِ!**» فَقَالَ: ومن سـفلَة السَّـفِلة قَـالَ: «**من أصلح دنيا غَيره بِفساد دينه**»[2].

فكانوا رحمهـم الله ينفرون كل النفور مـن الأكل بالدين، وجعل الدين قنطرة للدنيـا ورغائبها! فالعلم والعبادة والدعوة والخير؛ كل أولئك من سلع الآخرة، فليست مما يُطلب ويُراد لأجـل النهـوض بالحالـة الماديّـة، والاسـتقرار الوظيفـي، والوجاهة الاجتماعية!

---

(١) قـال مالك بـن دينار: «**أقسـم لكـم لـو نبـت للمنافقيـن أذنـاب، ما وجد المؤمنون أرضًا يمشون عليها**»!

(٢) مختصر شعب الإيمان (ص: ٩٨).

لكن الله يدري

جاء رجل إلى أبي سليمان الداراني وسأله: بماذا أتقرّب إلى الله؟ فبكى أبو سليمان، ثم قال: «**أمثلي يُسأل عن هذا؟**».. وهذا بحد ذاته جوابٌ كافٍ! فاحتقار النفس في ذات الله من أعظم ما يتقرب به المؤمن إلى الله..

ثم أردف أبو سليمان قائلًا: «**أقرب ما تتقرب به إليه أن يطلع على قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة إلا هو**»[1].

ما هو قدرك عند الله عندما ينظر إلى قلبك فلا يرى إلا إياه؟ لا دنيا ولا جاهًا ولا كبيرًا ولا صغيرًا تريده بصلاتك، وبصيامك، وبسائر عملك! فقط الله هو من تريده! ما الذي سيسكنه الله فيك من كرامات وأعطيات حين لا تريد من الحياة غيره؟

كانت بعض أعمالهم تكتنفها الغرابة، لأنّ العمل لله قد يكون غريبًا عند من لا يفهم العمل لله! فهذا منذر الثوري يحدثنا عن الربيع بن خثيم: أنه أخذ يُطعم مصابًا ـ أي: في عقله ـ خبيصًا[2]، فقيل له: ما يدريه ما أكل؟ قال: «**لكن الله يدري**»[3].

---

(١) ذم الهوى (ص: ٧٧).

(٢) حلوى تصنع من الدقيق والتمر والسمن.

(٣) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤/ ٢٦٠).

فمن الغريب أن تُطعم مجنونًا طعامًا شهيًّا، ويكون ذلك لا لأنّه يدرك ما يأكله؛ بل لأن الله يعلم ما تقدمه له، لذلك فأنت تقدّم أفضل ما لديك وأجود ما عندك! هذا الفعل في أفعال البشر يُعدّ غريبًا، ولكنّه مُتفهَّمٌ جدًّا عند من يعمل لله.. عند من ليس في قلبه إلا الله!

ولعلّ قضية «**لكن الله يدري**» أمّ الباب كما يقال! وأنّها سر أعمالهم التي عملوها، والأخرى التي اجتنبوها، ولياليهم التي بالطاعات ملؤوها!

الاضمحلال

وتراهم رحمهم الله وقد عظُم عليهم شأن الرياء، وجَعْل عمل الآخرة مما يُشرك فيه المخلوق مع الله تعالى.. فكثرت نصوصهم وقصصهم التي يدورون فيها مع هذا المعنى!

فها هو الربيع بن خثيم يتلو في مصحفه، فإذا ما دخل عليه أحدهم يغطي المصحف، حتى لا يُرى أنّه مكثر من قراءة القرآن الكريم! وذلك حفظًا منه لجناب قلبه من أن تطوّف به رغبة في الذكر والسمعة![1].

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤/ ٢٦٠).

ثم تراه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يكشـف سـر مثل هـذه التصرفـات، فيقول: «**كل ما لا يُرادُ به وجهُ الله يضمحلّ**»[1]، فكانوا يفرّون رحمهم الله من تلاشـي أعمالهم واضمحلالها، وأن تكون يوم القيامة هباء منثورًا..

وخوفًـا مـن الاضمحلال تسـمع عـن صيـام ابـن المبارك العجيب، يقـول عنه من خبـر أمـره: «**ما أفطر ابـن المبارك قط ولا رُئِيَ صائمًا قط**» وكأنه يقول: لا داعي للاحتشاد والتصفيق، إنه مجرّد صوم يوم في سـبيل الله! إذا تقبله الله فيا لفوزي، وإن لـم يتقبله فجهد ضائع، وسَرابٌ بِقِيعةٍ!

وهـذا محمد بن بَهْرام يكشـف سـرًّا من أسـرار محمد بن الواسـع تحصّل عليه بطريقتـه الخاصة فيقـول: «**كان محمد بن واسـع يصوم الدهر ويُخفي ذلك**»[2]، فلا حاجة لدى محمد بن الواسـع أن يعلم النـاس أنّه يصـوم الدهر! يكفـي أن الله تعالى يعلم ذلك.. ثم تـراه يخبرنا عمّن أخذ هذه الصفة فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**لقد أدركـتُ رجالًا كان الرجل يكـون رأسـه مـع رأس امرأته**

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤/ ٢٥٩).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٣٥١).

على وسادة واحدة، قد بلّ ما تحت خده من دموعه، لا تشعر به امرأته! ولقد أدركت رجالًا يقوم أحدهم في الصف، فتسيل دموعه على خده، ولا يشعر به الذي إلى جانبه»[1].

إنّه جيل عظيم، تتعانق لديهم أعمال الخير والبر! فكل خير لدى محمد بن الواسع تجد مثله لدى سفيان، وكل برّ عند الربيع تجد مثله لدى الفضيل، وكل عمل قام به ابن المبارك فقد قام به من قبله سعيد بن المسيب! فهذه أعمالهم وهي تنظر إلى بعضها البعض، وكأنهم كانوا مدارس يتخرّج كل واحد منهم في مدرسة صاحبه، يمشون على آثار أسلافهم، حتى يصل بهم المسير إلى حجرة في المدينة، ضوؤها خافت، بها محمد ﷺ يصلي بالليل والناس نيام!

الجُرأة

وكانوا رحمهم الله ينزعجون لإفشاء حسناتهم، ويتورّعون في هذا الشأن ورعًا زائدًا لائقًا بقلوبهم المرهفة! يحدّث أبو شهاب أنّه كان مع سفيان الثوري في المسجد، وأنّه قام يصلي، وبعد أن صلى قال له سفيان: «**يا أبا شهاب ما أجرأك!**

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٣٤٧).

تصلي والناس ينظرون إليك؟»[١]، ولا حرج فيما فعله أبو شهاب إن سلم له إخلاصه، ولكنّ سفيانَ سفيانُ!

وقد علَّمَتْ سفيانَ سنواتُ الطلب أنّ النية أصعب ما يكون، وأنّ الإخلاص لا يواتي النفس متى ما شاءت، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ عن تلك السنوات القديمة: «**طلبتُ العلم ولم تكن لي نية، ثم رزقني الله النية**»[٢].

فلا يفضّل سفيان أن يخوض المرء مغامرة في هذا المضمار الزَّلِق، وأنْ يعرّض قلبه للتجارب! فإن الخفاء، وحده هو الجادّة لدى هذا التابعي الجليل!

وهذا بشر الحافي عليه رحمات الله يعطينا مفتاح المسألة، ويختصر كل ما يمكن أن يقال فيقول: «**اكتم حسناتك كما تكتم سيئاتك**»[٣].

هل في الاختصار مثل هذا الكلام؟ كل حسنة تعملها اعتبرها سيئة واكتمها عن الخلق! ما أجودَ هذا الكلامَ وأحسَنَه!

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ٣٩٠).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ٣٦٧).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٣٤٦).

فلا تحتاج إلى ميزان الذهب حتى تعلم شأن الإخلاص، فقط طبّق كلام بشرٍ على حالك وأبشر بالخير.

خفق النعال

أما أبو سليمان الداراني فكانت مدرسته تتوجّه إلى عدم اعتبار الناس شيئًا يؤبه له، وأن الكمال ليس في ألا يراك الناس؛ بل في ألا يكون لرؤيتهم أثرٌ لو رأوك، فالرؤية وعدمها لديه سواء، لأنّهم أقل من أن يكون لهم تأثير، وهذه أمور قلوب، وكلٌّ يتحدّث عن قلبه وعن تجربته!

فكان يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**كم بين من هو في صلاته لا يشعر بمن مر به، وبين آخر يتوقع خفق النعال حتى يجيء من ينظر إليه**»[1]؛ ويعني أن الفرق كبير! وهو يعظم أمر ذلك الذي يصلي حيث شاء، ولكنه إذا صلى لم يُهِمَّه من مرّ به ومن نظر إليه!

وهذا أحد أصحابه يحدّثه عن تجربته الفريدة فيقول لأبي سليمان: صليت صلاة فوجدت لها لذةً. فقال: «**أي شيء لذلك**

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/ ٢٧١) بتصرف يسير.

منها؟» قال: قلت: لـم يرني أحد! قال: «**أنت ضعيف حين خطر الناس على قلبك**»[1].

فهو يـرى أنّ مرور النـاس بخيال المصلي، حتـى وإن كان ذلك في سياق الفرح بعدم وجودهم وعدم رؤيتهم له وهو يعبد ربه، يرى أن ذلك ضعفٌ، ونقصٌ في الكمال!

وعلـى أية حـال، فقضايـا الإخـلاص، وإرادة الله بالعمل كانت مـن أهـم ما يشـيّدونه فـي قلوبهـم، وأيامهـم ولياليهم رحمهم الله تعالى.

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/ ٢٧٨).

هي الدنيا

إنهما ملتصقان، السرور والحزن،
المرغوب فيه والمرغوب عنه!
لا تكاد تظفر بشيء من هذا
إلا ومعه شيء من ذاك!

هي الدنيا

لم يكن في قائمة اهتمامات جيل التابعين خانة فارغة ليضعوا فيها الدنيا؛ لذلك أسقطوها تمامًا، فما كانوا يأبهون بها، جاءت أم ذهبت!

يصعد أبو سليمان الداراني على منصة ذلك الزمن، ويقرّب مكبر الصوت منه، ثم يقول بكل صدق: «**ما على ظهر الأرض شيء أشتهيه**»[1].

الاشتهاء، والرغبة، والميل... كل هذه لن تجدها لديهم فيما هو بسبيل من الدنيا!

ستدهشك النصوص هنا، وكأنّ هذه الدنيا تشوُّهٌ طارئ على وجه الحياة، يجب أن يغض الطرف عن التحديق فيه! هكذا عاشوا فيها، عيش على أمل الفراق، واقتراب على نيّة الابتعاد! ولهذا فقد أخذوا منها أطهر ما فيها، وتركوا الباقيَ لأهل الدنيا!

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/ ٢٧٤).

دار قلقة

يعبِّر إبراهيم بن أدهم عن شعوره تُجاهَ الدنيا بثلاث كلمات، لـو أردت أن تدخـل فيهـنّ الدنيـا وما فيهـا لوقـع لـك ذلـك! يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«الدنيا دار قلقة!»**[1]، وأنت تعرف القلق ما هو وماذا يصنع! إنه عدم استقرار، وعدم راحة، إنّه شعور غامض بالخوف والحذر! وهكـذا الدنيا عنـد إبراهيم بـن أدهم! تعيشـها ومعك شعور غامض بالخوف من مخاتلتها وغدرها! لذلك كرهوها.

وهذا سعيد بن المسيب يحب أن يكون أكثر صرامة وواقعية في هذا الشـأن، فيصفها قائلًا: **«إن الدنيا نَذْلَةٌ وهي إلى كل نذْل أميل»**[2]، وكأنَّها مدعمة بمِغْناطيس النذالة، فتجدها تجتذب من يشاكلها من الناس!

ولأنها نذلة بحسـب تعبير سـعيد بن المسـيب، فتراه وهو النبيـل يأنف عنها وعـن أهلها فعـن عمران بن عبـد الله، قال: **«كان سـعيد بن المسـيب لا يقبـل مـن أحـد شـيئًا، لا دينـارًا ولا درهمًا، ولا شيئًا»**[3].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ١١).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ١٧٠).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ١٦٧).

ويقول إبراهيم في سياق آخر: «**والله ما آسى على ما أقبل من الدنيا، ولا ما أدبر منها**»[1]، لم يقل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا أفرح بما أقبل ولا آسى بما أدبر، بل عبّر بالأسى للحالين! وكأنّه اعتبر كل شأنها أسًى، سواء اتَّشَحَ بالفرح أم بالحزن!

كان رحمه الله يمشي في الدنيا وكأنّها صالة مغادرة! يمشي ومعه حقيبة السفر إلى الآخرة، ليس فيها غير مصحف وسجادة! ينتظر أن يسمع إعلان موعد إقلاع رحلته! أما زخارف المطار وفخامة بنائه فلا تعنيه أبدًا؛ لأنَّه أتى لينتقل من المطار لا لينتقل إلى المطار!

وهذا ميمون بن مهران يرمي الدنيا بسهم نافذ، فيقول عنها: «**ما أحب أن لي ما بين باب الرُّهَا إلى حرَّانَ بخمسة دراهمَ**»[2]، كم كانت رخيصة عندهم هذه الدنيا! خمسة دراهم يا ميمون؟ كم أنت عظيم!

أما الفضيل فكعادته، يُنهي الجدل بعباراته اللاذعة، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**لو أن الدنيا بحذافيرها، عُرِضَت عليَّ حلالًا،**

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٣٨٠).

(٢) المتمنين لابن أبي الدنيا (ص: ٥٥).

لا أحاسب بها في الآخرة، لمكثت أتقذرها، كما يتقذر أحدكم الجيفة، إذا مر بها أن تصيبَ ثوبَه»[1].

يا للكارثة التي أصابَ بها الفضيلُ عشّاقَ الدنيا!

هكـذا إذن يا فضيل، جيفـة؟ تتقذرها تقـذرًا! وهكذا كانوا رحمهم الله، يتقذَّرون من الدنيا، ويشـعرون بشـيء كالغثيان إذا عرَكوها وعرَكَتْهم!

وكأنّ الفضيـل كان يتأمّـل عبـارة علي بن أبـي طالب رضي الله عنه عندما رسـم الدنيا بريشـته النورانيّـة: «**الدنيا جيفـة! فمن أرادها فلْيَصبِرْ على مخالطة الكلاب!**»[2].

وعلى صوت النباح البشع تُسدَلُ ستائرُ الفصل المخصص لهجائيّة الدنيا.. ثم تُفتَح الستائرُ على فصلٍ آخَرَ، يظهر من الدنيا ما غاب عنّا!

تهيأ للذل

وفي أحد مساجد ذلك الزمن القديم تسمع صوته الشاحب وهو يعلن سخطه من الدنيا! إنه سفيان الثوري، ويقول والناس

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٢٣٨).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٢٣٨).

إليه ينظرون: «**ما أُعطِيَ رجل من الدنيا شيئًا إلا قيل له: خذه ومثله حزنًا**»[1] ثنائية مخيفة! خذه ومثله حزنًا! بقدر قرب الدنيا منك، تقرب الأحزان والهموم!

وفي مثل هذا المعنى، ولكن بصورة أشدّ وقعًا يعبر أبو حازم سلمة بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ قائلًا: «**ما في الدنيا شيء يسرك إلا قد التصق به شيء يسوؤك**»[2].

إنهما ملتصقان، السرور والحزن، المرغوب فيه والمرغوب عنه! لا تكاد تظفر بشيء من هذا إلا ومعه شيء من ذاك!

وكأنّ أبا حسن التهامي أراد هذا المعنى حينما قال:

جُبِلتْ على كدرٍ وأنت تُريدها صفوًا من الأقذاءِ والأكدارِ!

أمّا بِشرٌ الحافي فلا يكتفي بوصف الدنيا بأنها مجلبة للحزن؛ بل هي عنده مجلبة للذل، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**قل لمن طلب الدنيا: تهيأ للذل**»[3].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٢٠).

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ١٧٥).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٣٥٢).

استعدّ للانكسار، وأوّل فقرة من فقرات الذل والانكسار أنّك تطلب شيئًا اسمه «دنيا»، فلا بد وأنت تطلبها أن تدنوَ قليلًا أو كثيرًا؛ لتأخُذَ ذلك الشيء الذي تطلبه منها!

سفيان والدنيا

كان سفيان الثوري يمشي، حياة ولا بد فيها من السير! فأصاب إبهام قدمه حجرٌ؛ فدميت إبهامه! فلم يجعل إبهامَه الداميَ في إطار صغير، بل جعل الدنيا كلها في إطار ضخم وقال: «**أفٍّ لها.. ما أكثَرَ كدَرَها! عجبًا لمن يحبها**»[1]، اليوم إبهام يدمى، وغدًا صداع يتعب، وبعد غد حلم يفجع.. هي كذا، وعجبًا لمن يحبها!

وهذا يونس بن عبيد كأنّه يصدر هو وسفيان من مشكاة تأمليّة واحدة، فقد انتبه رحمه إلى هذا الملحظ! فيروى أن رجلًا شكا إليه وجعًا يجده في بطنه، فقال: له: «**يا أبا عبد الله، إن هذه دار لا توافقك، فالتمس دارًا توافقك**»[2].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ٣٧٥).

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٦/ ٢٩٢).

والدنيا عند سفيان قصيرة، فلا تستحق من العمل إلا ما يناسبها! اليسير جدًّا! جاءه رجل وقال له: أوصني! فأجابه: «**اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، وللآخرة بقدر بقائك فيها، والسلام**»(١)، أتدري ماذا تعني «**والسلام**»؟ إنّها تعني أنّ الأسئلة والاستفسارات ممنوعة! ولا حاجة لها، فالكلام واضح ولا يتسع للاستشكالات.

أكل ذات يوم شيئًا، فلما قضى نهمته من الطعام؛ أدخل يده في الرمل ودلكها، فقال له أحدهم: لو غسلتها! فقال سفيان: «**إنما هي أيامٌ قلائلُ**»(٢) فمن شدّة قصر الدنيا في ذهنه بات رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستكثر عليها الممارسات الطبيعية!

ويعطيك سفيان المجهر الذي تكتشف به حجم الدنيا فيقول: «**إذا أردت أن تعرف قدر الدنيا فانظر عند من هي**»(٣)، فغالبية أهل الدنيا هم الجهلة، أصحاب الشح المطاع، والهوى المتبع، والدنيا المؤثرة! فهؤلاء هم أهلها، فكيف تُراها تكون؟

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٥٦).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٣٦).

(٣) ذم الدنيا (ص: ١٤٥).

ومن رهافته في هذا الباب أنّه بات يلحظ أمارات حب الدنيا فيمن حوله، ويجعل لذلك معاييرَ وإشاراتٍ! فها هو يقول: «**إني لأعرف حب الرجل للدنيا بتسليمه على أهل الدنيا**»[1]، فشيء، كالانكسار يبرق في عيني الرجل إذا ما التقى بأهل الدنيا، خضوع في النبرة، نظر إلى الأسفل... أشياء يلمحها سفيان فيدرك من خلالها أن هذا الرجل يحب الدنيا! ومن أحب الدنيا فإنّما قذفه الله بالوهن! ففي الحديث: «**ولَيَقذِفَنَّ اللهُ في قلوبِكم الوَهْنَ**» فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «**حبُّ الدنيا، وكراهيةُ الموت**»[2].

وهذا ابنُ يمانٍ يشرح لنا سفيان الثوري فيقول: «**ما رأيت مثل سفيان الثوري، ولا أبصر سفيان مثله أقبلت الدنيا عليه فصرف وجهه عنها**»[3]، ولك أن تتخايل دنيا مقبلة، تريد بمالها وجاهها وبُلَهْنِيَتِها قلب رجل، فيصرف وجهه عنها! وقلبه عنها! ليُكملَ رحلته الهادئة صوب دار الإقامة الأبدية!

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٣/ ٢٤).

(٢) سنن أبي داود (٤/ ١١١).

(٣) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٧/ ٢٥٤).

ثم يظهر سؤال يقول: إذن هو يحب الموت؟ فالقنطرة التي تنقلنا من الدنيا إلى الآخرة هي الموت! فتأتي إجابته لتؤكد ذلك! فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«ما نفسٌ تخرُجُ أحبَّ إليّ من نفسي، ولو كانت في يدي لأرسلتها»**(١).

لو كانت روحه في يده لأطلقها كما يطلق أحدنا طيرًا قد اشتاق إلى دوحته! فتراه يرفرف في السماء جذلًا! وكذلك روح سفيان في مخياله الخصب!

وقد كان تلاميذ سفيان يجدون لديه كل شيء، إلا الدنيا! لذلك فقد كانوا يتزاحمون على درسه؛ لأنه استطاع أن يدخل الآخرة في قلوبهم!

يقول حفص بن غياث: **«كنا نستغني بمجلس سفيان عن الدنيا»**(٢).

لأنه أنساهم الدنيا، فكان مجلسه دنيا تفيض بالكرامات والدهشة!

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ١٢).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٣٤٩).

بـابـان

والقلب موطن حب الدنيا أو كرهها، والدنيا لا تجد مثل القلوب لتعشش فيها ما أُتيح لها التعشيش! ولكن هيهات أن يسلم ذلك الجيلُ قلبَه النقيَّ التقيَّ إلى هذه العجوز الشمطاء!

وأتى الفضيل!

وإذا أتى الفضيل، أتت معه نبرة لا تجدها إلا عند الفضيل! يقول رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: «**لا يسلم لك قلبك؛ حتى لا تبالي مَن أكلَ الدنيا**»(١).

لا يهمك أولئك الذين امتلأت الحياة بزَهَمِهم، وهم يقضَمون الدنيا بشَراهةٍ قلَّ نظيرها! لا تلقي لهم بالًا، مهما استكثروا منها واستوسعوا!

ويكشف لنا أبو سليمان الداراني عن سر كرههم للدنيا، وصرفهم أوجُهَهم عنها، واستحقارهم لأهلها فيقول: «**إذا سكنت الدنيا في القلب ترحلت عنه الآخرة**»(٢)؛ كأنَّ القلب له بابان، إذا طرقت الدنيا بابًا منهما لتدخل، سمعت الآخرة وهي تدفع الباب الآخر لتخرجض بهدوء!

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٨/ ٤٣٣).

(٢) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ١٣٥).

شربة الماء

الدينار والدرهم وما أدراك ما الدينار والدرهم! وهل نكّس المنكّسون رؤوسهم وذاقوا طعم المذلة إلا لأجلهما!

فما هو قدرهما في ذلك الزمن وعند أولئك الرجال؟

يقول محمد بن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «**المسلم المسلم عند الدرهم والدينار**»[1].

أي: إن أردت أن تعرف المسلم على حقيقته فانظر إليه ماذا يصنع إن عرض الدرهم والدينار أمامه؟ هل سيبيع شيئًا من آخرته لأجل شيء من دنياه؟ كما عبّر الشاعر:

أذلّ الحرصُ أعناقَ الرجالِ!

أم سيكون جبلًا لا تهزّه ريح الدراهم والدنانير! وما أندَرَ هذا النوعَ!

أما ابن عيينة فيعيد تشريح الدينار والدرهم لتدرك حقيقتهما فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «**بئس الرفيقان: الدينار والدرهم، لا ينفعانك حتى يفارقاك**»[2].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٢٦٧).

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤/ ٥٧٦).

فما قيمة شيء لا ينفعك إلا إذا فارقك؟ وكذلك هما، لا بد من الاستغناء عنهما حتى تذوق نفعهما، فهذه التقاطة ذكية من ابن عيينة، وجهها إلى زاوية مسكوت عنها!

وفكرة الاستغناء هذه تظهر في كلام ابن عيينة مرة أخرى، وكأنّها باتت جزءًا من تحليله للأمور، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وما الدنيا؟ إن كنتَ بائعَها بشَربةٍ على ظمأ!**»[1].

فليست القضية قضية دينار ودرهم ستستغني عنهما! بل دنيا بأسرها ستستغني عنها مقابل شربة ماء!

وكأنّ ابن السماك رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان ينظر بطرف خفي إلى كلمة ابن عيينة هذه! يقول الراوي: «دخل ابن السّمّاك على الرّشيد، فاستسقى الرّشيدُ ماءً، فقال له ابن السّمّاك: «**بالله يا أمير المؤمنين لو مُنِعتَ هذه الشربة بكم تشتريها؟**» قال: بملكي! قال: «**لو مُنِعتَ خروجها بكم كنت تشتريها؟**» قال: بملكي. فقال: «**إن ملكًا قيمته شربة ماء؛ لجدير ألّا يُنافَسَ فيه**»[2].

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٣٠٦).

(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٢/ ٤٣٤).

ولا حصير

أما إذا دخلنا بلاط الحسن البصري فسنجد فلسفته الخاصة مع الدينار والدرهم!

ولكن لندخل بلاطه أوّلًا؛ لنرى محتوياته!

يقول مطر الورّاق: «**دخلنا على الحسن نعوده، فما كان في البيت شيء، لا فراش، ولا بساط، ولا وسادة، ولا حصير**»(١).

هذه محتويات قصره المشيد، باختصار: لا شيء! لم يأخذ من الدنيا شيئًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ !

فكيف سيكون الدرهم عند من هذا حاله؟ نقل عنه من سمعه أنه حلف بالله: «**ما أعَزَّ أحدٌ الدرهمَ إلا أذله الله**»(٢).

وهذا شأن لا يحلف عليه مثل الحسن إلا وقد رأى برهانه فيمن عاش معهم، وعلم شأنهم، وخبر بواطن أمورهم!

أعند الحسن يُبحث عن الدنيا؟ هذا الذي يراها مكبًّا للذل، ومكانًا تلقى فيه الهمم الوضيعة! وقد صدق في الهرب منها،

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤/ ٥٨٢).

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤/ ٥٧٦).

حتى إنّ من يأتيه تنتقل إليه عدوى كره الدنيا! يقول الأشعث: **«كنا إذا دخلنا على الحسن خرجنا ولا نعُدّ الدنيا شيئًا»**[1].

إن وضعك لقدمك في بيت الحسن يجعل الدنيا تنصرف عنك تلقائيًّا! إنّه بيت فيه كل شيء إلا الدنيا، وإنّه رجل ستجد الدنيا في أي مكان إلا بيته!

اسمعه وهو يهمس للشباب ناصحًا: **«يا معشر الشباب، عليكم بالآخرة فاطلبوها؛ فكثيرًا رأينا من طلب الآخرة فأدركها مع الدنيا، وما رأينا أحدًا طلب الدنيا فأدرك الآخرة مع الدنيا»**[2].

وكأنه يقول: لو لم يكن الزهد في الدنيا من الدين، لكان من العقل!

هذه هي الدنيا في خيالات التابعين، خرجوا منها كما دخلوا إليها.. خرجوا منها أعزّة، لم تستطع أن تُنكِّسَ هِمَمَهم، كما فعلت مع أولئك الذين عكفوا على عبادتها، ومسح حذائها المتسخ!

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ١٥٨).

(٢) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ٦٥).

حزن تمليه الخشية

فإن الله إن أخذ العبد لم يفلته، وهذا معنًى من المعاني التي بسببها طال خوفهم، وعظم واشتد..

حزن تمليه الخشية!

صبغ الحزن أيامهم، وغيّر الخوف ملامحهم، وصاروا أشبه ما يكونون بالأنين الذي يصدر عن قلوبهم!

في كل ساعة من حياتهم آهةٌ مِن أرواحهم! وعند كل منعطف تراهم يقفون بخشوع، ليسفحوا شيئًا مما يجول في نفوسهم فوق بساط الدنيا التي جعلوها تحت أقدامهم!

منهم من أوقف نفسه في صومعة الخشية، ومنهم من بات الخوف أكيلَه وشَرِيبَه، ومنهم من قضى عليه الحزن، فمات من آية سمعها في صلاة!

يقول بشر بن الوليد: «**رأيت الأوزاعي كأنه أعمى من الخشوع**»[1].

(١) صفة الصفوة (٢/ ٤٠٥).

ويقول جعفر: «**كنت إذا رأيت وجه محمد بن واسع حسبت أن وجهه وجهُ ثَكْلَى**»[1].

وهم أهل العلم، وقد أخبرنا الله تعالى في كتابه العزيز أنّ الخوف منه إنّما يتوطّن قلوب أهل العلم به، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]..

كان أمر الخوف من الله يمسك في نفوسهم بزمام بقيّة الأمور، فيكون انقياد حياتهم إليه، والاعتماد في السير إلى الله عليه.

السماء

في زمن يعتقد ميمون بن مهران أنّ الخوف قد بهت في نفوس العباد، أخذ يطوّف بذكريات أيامه الخوالي، ثم قال: «**أدركت من لم يكن يملأ عينيه من السماء فَرَقًا من ربه ﷿**»[2].

هكذا يسيرون مطرقين، ينظرون إلى الأرض، يتخايلونها تميد بهم خشية وخوفًا..

---

(١) صفة الصفوة (٢/ ١٥٩).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٦١/ ٣٤٥).

إن السماء لعلوِّها، تذكرهم بربهم الأعلى الذي خلق فسوّى والذي قدّر فهدى! تذكرهم بالذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، تذكرهم بالذي على العرش استوى، الذي يعلم السر وأخفى! فلا يحدّقون في الأعلى! لأنّ شيئًا من الذهول يغشاهم إذا ما حدّقوا في الأعلى، وشيئًا من الرعب يحيط بهم، وأشياء من الرجفة والانضمام والبرودة تنتزع الراحة من حياتهم!

يروي قتادة عن مورِّق العِجْلي قوله: «**ما وجدت للمؤمن في الدنيا مَثَلًا إلا مَثَلَ رجلٍ على خشبةٍ في البحر وهو يقول: يا رب، يا رب!**»(١).

هذا المنظر هو أقرب منظر لما ينبغي أن يكون عليه شأن المؤمن عند مورّق رَحِمَهُ اللَّهُ! إنّه على خشبة في البحر، والأمواج تتلاطم به، وهو يجأر: يا رب، يا رب.. هكذا كانوا يرون الحياة، ويرون ما ينبغي أن يكون عليه أهل هذه الحياة! فكل شيء من حولهم ينبغي أن ينزع عنهم أردية الطمأنينة! فالله عظيم ينبغي أن يُحذرَ منه! ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]!

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٢٣٥).

التـردد

مسـلم بن يسـار يفتق معنًـى مـن معاني الخشـية عميق وجليل، يقـول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**إذا حدثـت عن الله، فأمسـك! فاعلم ما قبلـه وما بعده**»[1] إنّـه معنـى التـردد لأجـل الله التوقف قليـلًا قبل أن تزعـم أن الله يريد هـذا، أو لا يريـد ذاك! إنّـه باب إلى النار يُفتَح، فإما أن تُغلِقَـه بالخشيـة، وإما أن تَلِجَه بالجرأة!

والحديـث عن الله مرغـب ومرهب! يقول الأشـعث: «**كان محمد بن سـيرين إذا سُئل عن شـيء من الفقه تغير لونُه وتبدّل حتى كأنه ليس بالذي كان**»[2].

ويأخذ مهدي بن ميمون عدسته ويقربها أكثر من ابن سيرين فيقـول: «**كان محمد بـن سـيرين يتمثل الشـعر، ويذكر الشـيء ويضحك، حتى إذا جاء الحديث من السُّنّة كلح، وانضم بعضه إلى بعض!**»[3].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٢٩٢).

(٢) صفة الصفوة (٢/ ١٤٤).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٢٧٤).

وهـذا ابن عـون يزيد أمر ابـن سـيرين جلاء فيقـول: «**كان محمد بن سيرين إذا حدّث كأنه يتقي شيئًا، كأنه يحذر شيئًا**»[1].

إنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتمثل الوقوف بين يدي الله، وكيف سيجيب الله عن شيء أباحه، وقد حرّمه الله تعالى! أو حرّمه وقد أباحه الله تعالى! هذه الفكرة تجعل جلده يتغيّر، ولونه يتبدّل، وملامحه تذبُل!

يتخايل حديـث: «**من كذب عليّ متعمـدًا فليتبوّأ مقعده من النـار**»، فيتـراءى النار تصطفـق أبوابها، فيضطـرب لأجل ذلك! ويصرف وجهه؛ ليشتتَ ذاك الخيال!

ولذلك فإن علماء الحديث يصفون ابن سيرين بشدّة الدقة في نقل وضبط ألفاظ الحديث! ولعل هذا هو السبب، فلم يكن يجيز لنفسه الرواية بالمعنى!

أمـا إن أردت أن يذهلـك ابـن سـيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فتعـالَ معي لتسـمَعَه وهو يقـول: «**إنـي أرى المرأة فـي المنام فأعـرف أنها لا تحـل لي، فأصـرف بصـري عنهـا**»[2]؛ إنـه نوع مـن الخوف لا يخطر ببال أحد، فرحم الله التربة التي كانوا يمشون عليها!

---

(١) صفة الصفوة (٢/ ١٤٣).

(٢) تاريخ بغداد ت بشار (٣/ ٢٨٣).

طول النسيئة

ما أصدق كلماتهم رحمهم الله، لذلك فإنّها تحرّك تلك المناطق التي علاها السكون في قلوبنا!

ولم يكونوا يتمثلون الخشية فحسب؛ بل كانوا يدفعون الحياة لتجثُوَ في محراب الخشية، فتزكو النفوس بمواعظهم، ويفقه الغافل شيئًا لم يكن يدركه!

يقول أبو عمران الجوني: «**لا يغرنكم من الله طول النَّسيئة، فإن أخْذَه أليمٌ شديد**»[1].

إن شيئًا من الطمأنينة تعلو القلوب، بسبب إمهال الله تعالى عباده، وحلمه عنهم، ولكن لا ينبغي أن يغتر العبد بذلك الإمهال، أو كما عبّر أبو عمران «**طول النسيئة**» فإن الله إن أخذ العبد لم يُفلِتْه، وهذا معنًى من المعاني التي بسببها طال خوفهم، وعظم واشتد..

ويعلي الفضيل بن عياض نبرته لتستيقظ نفوس طال نومها! فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**إن خفت الله لم يضُرَّكَ أحدٌ، وإن خفت غير الله**

(١) حفظ العمر لابن الجوزي (ص: ٦٨).

لم ينفعك أحد»[1]، ثنائية سهلة الفهم، بسيطة الإدراك؛ ولكنه لا يُلَقَّاها إلا الذين أدركوا غَورَها وعمقها!

إن خفت الله فإن خوف الله أعظم ما يساقط عنك الذنوب! فهو مثل الريح الشديدة التي تتساقط بها أوراق يابسة على شجرة ذابلة في ليلة خريفية!

فإذا نُقِّيتَ من الذنوب، لم تعُدْ متلبِّسًا بما تستحق العقاب لأجله، من إضرار الآخرين بك! فيكون بذلك الخوف من الله سببًا في طمأنينة العبد من أن يضُرَّه أحدٌ من الخلق! كيف أدرك الفضيل هذا العمق، ثم عبّر عنه بهذه اللغة السهلة!

أما الحسن البصري فيقول واعظًا كعادته في الوعظ: «**والله لأنْ تصحَبَ أقوامًا يخوفونك حتى يدركك الأمن خيرٌ لك من أن تصحَبَ أقوامًا يؤمنونك حتى يلحَقَك الخوف**»[2].

فانظر إلى عاقبة الأمر، ولا تصرفك البدايات عن النهايات!

---

(١) شعب الإيمان (٢/ ٣٠٥).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ١٥٠).

دموع الحسن

وكانوا رحمهم الله يعيشون بالخوف؛ حتى طبعهم الخوف بطابع الحزن، فصاروا وكأنّهم قطع خُلِقت من الحزن والكآبة!

فهذا الحسن البصري، يسير في طرقات البصرة كاسف النظرة، متحقّبًا أحزانه، مرتديًا مخاوفه، مصطحبًا توجّسه!

يقول يوسف بن أسباط: «**مكث الحسن ثلاثين سنةً لم يضحَكْ، وأربعين سنةً لم يمزَحْ**»![1].

ويصفه إبراهيم بن عيسى اليشكري فيقول: «**ما رأيت أحدًا أطولَ حزنًا من الحسن، ما رأيته إلا حسبته حديثَ عهدٍ بمصيبة**»[2].

يراه الناظر، فيظن أنّه حديث عهد بفقد حميم! هكذا ترى مخايل الوجع في ملامحه!

يفسّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ شيئًا من سر تلك النظرات الموغلة في الحزن، وذلك الذعر الملاصق لقلبه فيقول: «**نضحك ولعل الله قد اطلع على بعض أعمالنا فقال: لا أقبل منكم شيئًا**»[3].

---

(١) صفة الصفوة (٢/ ١٣٨).

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤/ ٥٧٥).

(٣) صفة الصفوة (٢/ ١٣٨).

فاطلاع الله على أعمالنا المسكونة بإرادة الدنيا كان أحدَ أسباب حزنه!

ومرة أخرى يكشف لنا عن سرٍّ آخَرَ لذلك القلق، فيقول: «**يحق لمن يعلم أن الموت مورده وأن الساعة موعده وأن القيام بين يدي الله تعالى مشهده أن يطول حزنه**»[1].

وقد طال حزن الحسن طولًا لا مزيدَ عليه!

أحزان الفضيل

وهذا الفضيل بن عياض كان سابغ الأحزان، منكسر النظرات، يسير في الدنيا وكأنّه ليس من الدنيا!

يقول عبد الله بن المبارك: «**إذا نظرت إلى الفضيل جدد لي الحزن، ومقتُّ نفسي، ثم بكى**»[2].

بات حزنه يبث هالاته فيمن حوله! ويتحدث ابن المبارك مرة أخرى عن هذا الحزن فيقول: «**إذا مات الفضيل؛ ارتفع الحزن**»[3].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ١٣٣).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٨/ ٣٨٩).

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٨/ ٣٨٢).

نعم، فهو يرى أن كل الحزن قد اجتمع في صدر الفضيل!

ويفسّر الفضيل سبب تلك المسحة الحزينة بالخوف من الذنوب ومغبّتها، فيقول: «**المؤمن يهمه الهرب بذنبه إلى الله يصبح مغمومًا، ويمسي مغمومًا**»[1].

ويفسرها مرة أخرى بأنها ناجمة عن التزوّد ليوم المعاد فيقول: «**المؤمن في الدنيا مغموم يتزود ليوم معاده، قليلٌ فرَحُه**»[2].

فقد صُنعت آهاته بين ذنوب يخافها، وأعمال يخاف عليها!

مخاوف سفيان

يأتينا سفيان الثوري فتأتي معه الدهشة! كان يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «**إني لأسأل الله أن يذهب عني من خوفه**»[3].

لقد كان يعاني من شدّة الخوف من الله، إن النوم لا يغدو مريحًا، والحديث مع الناس لا يبدو ممتعًا، بل وحتى العبادة

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٨/ ٤٤٥).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٨/ ٤٤٥).

(٣) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٧/ ٢٧٦).

يغدو عليها شيء من رماد الرهبة إذا ما عظم خوف العبد من الله! وهذا الذي كان يسكن روح سفيان! لقد أذبله القلق، وشتَّت فؤادَه الفَرَق! فلذلك كان يدعو الله أن يخففَ عنه ما يجده في نفسه من الخوف الشديد!

يقول عطاء الخفاف: ما لقيت سفيان الثوري إلا باكيًا! فقلت: ما شأنك؟ قال: «**أتخوّف أن أكون في أم الكتاب شقيًّا**»(١).

إنه الخوف من الشقاء الأخروي! الخوف من أن يتفاجأ عند الرجوع إلى الله بأن تقديراته لم تكن دقيقة! خاصّة حينما يصل إلى أذنيه صوت شهيق جهنّم!

ولشدة خوفه من ربّه بات يمشي بين الناس، ولسانه يشي بذلك الشعور الذي يتغشّى فؤادَه! فقد وصف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنَّه كان يُرى وكأنه في سفينة يخاف الغرَق! وأكثر ما يُسمع منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: «**يا رب سلّم سلّم**»(٢).

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٧/ ٢٦٦).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٢١).

ويحدثنا سفيان - وهو الخبير - بسبب بهتان الخشية في نفوس العباد فيقول: «**بلغني أنه يأتي على الناس زمان تمتلئ قلوبهم في ذلك الزمان من حب الدنيا فلا تدخله الخشية**»[1]، فالدنيا هي التي يدور حولها الشأن كلّه، فإن دخلت إلى القلب من باب، فسيخرج منه الخوف من الباب الآخر! وكل شيء من الدنيا يأتي، يعقبه شيء من الخشية يذهب!

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ليس طلب العلم: «فلانٌ عن فلانٍ»؛ إنما طلب العلم الخشية لله عَزَّوَجَلَّ**»[2].

ويقول: «**لو لم أعلم لكان أقلَّ لحزني**»[3].

يختصر سفيان قضية طلب العلم في الخشية، وما أجمل اختصاراتهم رحمهم الله، لديهم قدرة فائقة في تحييد ما ليس له مساس بأصل المسألة، ثم يعطونك الخلاصة أنقى ما تكون!

يأتي ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ ليشرح ذلك الاختصار فيقول: «**أكثركم علمًا ينبغي أن يكون، أشدَّكم خوفًا**»[4].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٣٨).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ٣٧٠).

(٣) صفة الصفوة (٢/ ٨٥).

(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ١٦٨).

والفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ يؤمّن على المعنى ذاته فيقول: «**أعلم الناس بالله أخوفهم منه**»[1].

فالعلاقة بين العلم والخشية لديهم كما ترى طرديّة، فالزيادة في هذا يتبعها زيادة في هذه.. أو هكذا ينبغي أن يكون الأمر.

ويختم لنا سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ درس الخوف بمقولة مهمة جدًّا، ومحوريّة جدًّا في هذا الباب: «**ما أطاق أحدٌ العبادةَ ولا قوِيَ عليها إلا بشدةِ الخوف**»[2]، وهو ولا شك يتحدّث عن تجربته الخاصة، وإلا فهناك من أطاق العبادة بالرجاء، وهناك من أطاقها بالحب، وهناك من أطاقها بالشكر! وللنفس أحوال، وإقبال وإدبار.. ورضي الله عن سفيان، وعن أيام سفيانَ..

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٨/ ٤١٥).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ٣٦٢).

فجيعة اسمها الموت

يحسد من؟ والحاسد والمحسود

سيموتان غدًا، أو بعد غد!

فجيعة اسمها الموت

الموت هو الموضوع الأكثر أهميّة فيما نُقِل لنا عن التابعين، وهو حاضر في أذهانهم بكثافة، بحيث إنَّك تعتقد أنّه ليس فكرة داخل أذهانهم، بل غطاء رمادي اللون يحتوي تلك الأذهان، لا ينفكون عن ذكره، وترائيه، والعمل وَفقَ الخوف الذي يخلّفه لهم.

عن الفضيل بن عياض أن ابن المبارك قال له بحضرة ابنه علي: «**استعد للموت ولما بعد الموت، قال الفضيل: فشهق علي شهقة فلم يزل مغشيًّا عليه عامّة الليل!**»

كانت مواعظهم رحمهم الله عن الموت، وأحاديثهم عن الموت، وتفكيرهم يكاد ينحصر في الموت وما بعد الموت.

لا يسير التابعي خطوة إلا ويسمع هامسًا يهمس في أذنه: «**أرضيتم بالحياة الدنيا**»؟ ولا يرتقي مرتقًى إلا ويرى بعينه قبرًا يذكره بيوم الرحيل.

وداع الفرح

لو أردنا أن ندلف إلى عالم القرون الأولى سيفجؤنا أوَّلَ ما يفجؤنـا صوت واعـظ التابعين الأشـهر «الحسـن البصري» وهو يهتـف في شـوارع البصـرة بالحقيقة الأكثـر وضوحًا في ذهنه، بل وفي ذهن جيله: «**فضحَ الموتُ الدنيا، فلم يدَعْ لذي لبٍّ فيها فرَحًا**»(١).

نعم، إنّه يرى الموت فضيحة كبرى لهذا الشيء الذي اسمه «الدنيا».. إنّه يُظهرها على حقيقتها، إنّ الدنيا شيء جميل رائع، ولكنّ آخرها الموت! ولكنّك إذا ما سرت فـي نفقها المتعرّج لمحـت آخـره عينيـن تنظـران إليـك! وسـمعت صوتًـا يهمس باسـمك! إنّه الموت الذي ينتظرك هنـاك! ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ [الجمعة: ٨]!

الموت الذي يجعـل العظمـة والجمال والروعـة والمتعة سَـرابًا! فيسـلب الفرح، يسـلبه عـن أولـي الألبـاب والعقول، ويطفئ ذلك اللون الوردي الذي يرينا الأشـياء أجمل مما هي عليه في الحقيقة!

---

(١) الهم والحزن لابن أبي الدنيا (ص: ٦٩).

هذا رَجاءُ بنُ حَيْوةَ الوزير الصالح في الدولة الأموية يمسك قلمه ويكتب في فضاء ذلك الزمن: «**ما أكثر عبدٌ ذكرَ الموت إلا ترك الحسد والفرح**»(١).

يحسد من؟ والحاسد والمحسود سيموتان غدًا، أو بعد غد؟

ويفرح على ماذا؟ وكل مفروح به من شأن الدنيا مصيره الزوال!

لقد انتزع الموت قناع الفرح بهذه الفانية، وجعلهم يسيرون في دهاليز هذه الحياة بملامحَ باهتةٍ، وكأنّهم منفيون يسيرون في شوارع الحياة بحذر، ويتلفتون بخوف، يبحثون عن وطن! ثم لا يجدونه!

وما زال الموت يقاوم معانيَ الفرح الزائف في نفوس الأوائل! يقول الفضيل بن عياض: «**هل ترك الموت للمؤمن فرحًا؟ وإنما المؤمن يصبح مغمومًا ويمسي مغمومًا! وإنما دهرَه الهرب بدينه إلى الله** عَزَّ وَجَلَّ»(٢)، ولك أن تتوقفَ ما شاء

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ١٧٣).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٨/ ٤٤٥).

لك التوقّف عند كلمة الفضيل: «**وإنما دهره الهرب بدينه إلى الله**» الهرب مِمَّن؟ الهرب من الحياة! هذه التي شأنها تحطيم الآخرة في النفس، الهرب منها إلى الله! إلى الله الذي إليه الرجوع! ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨] فما دام الرجوع سيكون إليه، فلْيَكُنْ الرجوع من الآن! وليكن هروبًا لأن تنين الدنيا البشع برؤوسه الثلاثة لا يتوقف عن محاولة نفْثِ لهيب الشهوات في طريق اليوم الآخر!

حب العاجلة

وللموت فعلٌ آخَرُ في القلب، غير انتزاع الفرح! فهذا ثابت البناني ينتبه لذاك الفعل العجيب فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ما أكثر أحد من ذكر الموت إلا رُئي ذلك في عمله**»[1].

ينعكس ذكر الموت على تصرفات الإنسان، تختفي نزعة حب التملك، والولع بالعاجلة، والرغبة في السيطرة والرئاسة، لتظهر مكانها نزعة القيام في الليل والناس نيام، وكثرة الذكر والتسبيح، وصيام الهواجر.

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٣٢٥).

وهذا الأوزاعي عالم الشـام يقعّد قاعدة لا يشذ عنها أحد: «**من أكثر ذكر الموت كفاه اليسير**»(١).

وقد كان الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حادَّ البصيرة فالدنيا بكامل بهرجها وزينتها قليل ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨] فهذا القليل، لا يناسبه إلا اليسير من العيش.

وجاء من بعدهم بشـر الحافي فجعل من ذكر الموت سببًا في ذهاب همّ العيش والـرزق، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**إذا اهتممت لغلاء السعر فاذكر الموت فإنه يذهب عنك هم الغلاء**»(٢).

فلم يكن ذكر المـوت يعني مجرّد الحزن والخوف، بل من معانيـه لديهم اجتمـاع القلب وعـدم تفرّقـه في وديـان الحياة، بهمومها وانشغالاتها..

ذعــر

لقد كان الموت ذعرَهم الدائم، وفزَعَهم الذي لا ينقطع! فهذا ابن سـيرين يعيش في هذه الحيـاة مفجوعًا من الموت،

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ١٤٣).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٣٤٧).

لا يأتي ذكر الموت إلا وجـاء معه ذكر الفزع! عن دهير قال: **«كان ابـن سـيرين إذا ذُكِر الموتُ مـات كل عضـو منه على حدته»**[(١)].

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذبل، ويشيخ فجأة، ويتحول إلى شجرة يابسة تنفخ رياح الموت أغصانها، لتتساقط أوراق حب الدنيا منها ورقة ورقة!

قال مهـدي: **«كنا نجلس إلـى محمد فيحدثنـا ونحدثه.. فـإذا ذُكر المـوت تغير لونـه، واصفـرّ، وأنكرنـاه وكأنه ليس بالذي كان»**[(٢)].

«كأنه ليـس بالـذي كان!» يأتي المـوت فيعيـد ترتيب تلك النفوس، فينتزع منها ما يشبه الدنيا، ويضع فيها ما يشبه الآخرة!

وهذا مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّـخِّير يعبر عن هذا الذي يصيب ابن سـيرين وأضرابـه فيقـول: **«إن هـذا المـوت قـد أفسد على أهل النعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيمًا لا موت فيه»**[(٣)]

---

(١) صفة الصفوة (١٤٦/٢).

(٢) صفة الصفوة (١٤٦/٢).

(٣) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٩١/٤).

إنّه التنغيص، نعم فالموت نغّص عليهم وأذهب عنهم رونق الحياة! ولا بد والحالةُ هذه البحث من عالمٍ آخَرَ لا تنغيصَ فيه ولا كدر!

الثــواء

وكانوا رحمهم الله يستخدمون الموت لـردع أولئك الذين تحيد بهم خطواتهم على دروب الحياة الزلقة! يقول موسى بن إبراهيم: حضرت معروفًا الكَرْخيَّ وعنده رجل يذكر رجلًا وجعل يغتابه، فجعل معروف يقول له: «**اذكر القطن إذا وضعوه على عينيك**»[1].

لم يحتج معروف الكرخي إلى أن يسرد الآيات والأحاديث التي يكُفُّ بها ذلك الرجل عن غِيبة أخيه، فقط ذَعَره بصورة القطن وهم يضعونه على عينيه قبل دفنه؛ استعدادًا لذهابه إلى الله!

وسفيان الثوري يُسكت شعور الفخر والكبر والخيلاء في النفس بصورةٍ مفجعةٍ: «**دع الكبر والفخر، واذكر طول الثواء في القبر**»[2].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٣٦٤).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٢٨٣).

ولك أن تتخيّل أولئك المتكبرين الذين عناهم سفيان في زمنه، وكيف أنّهم عاشوا ستين أو سبعين سنة في كبرهم وفخرهم، ثم ها هم قد مضى عليهم في قبورهم أكثر من ألف وثلاث مئة سنة! صدق والله لما وصف مدة المكث في القبر بـ «**طول الثواء**».. فماذا تساوي السبعين سنة في مقابل الألف سنة! بل وأكثر من الألف!

وهذا الحسن البصري يضخّ معنًى غريبًا جدًّا متعلقًا بالموت، فيقول: «**ما رأيت يقينًا لا شك فيه أشبَهَ بشكٍّ لا يقينَ فيه إلا الموت**»[1] ومشكلة عويصة الحل إذا ما حشر الإنسان حقيقة الموت ضمن الخانة المخصصة بالمستحيلات في ذهنه! فأي دافع يدفعه للعمل بعد ذلك؟

ويأتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ذكر الموت وفجيعته فيقول: «**إيهٍ ابن آدم! معجبٌ بشبابه، معجبٌ بجماله، معجبٌ بثيابه، كأنّ القبر قد وارى بدنَك، وكأنّك قد لاقيت عملك، فداوِ قلبك فإن حاجة الله إلى عباده صلاح قلوبهم**»[2].

---

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٧١).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ١٥٤).

صورة البدن وقد وُورِيَ القبر صورة تختصر ذلك العهد المؤمن، إنّ الآخرة هي أهم ما يهمهم، والقبر هو العتبة الأولى من عتبات الآخرة، فقد قال النبي ﷺ: «**الْقَبْرُ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ**»[1].

هكذا كانوا يفعلون، لقد جعلوا من الموت موعظتهم الأشهر، ينهون بها فلسفات ونقاشات ووجهات نظر كاذبة خاطئة.

الترحل

كانوا يوزعون الموت في زوايا الحياة، لعلّ قلبًا يفيق، ولعلّ ضميرًا يتيقظ!

فها هي نبرة الحسن البصري تصدح في ذلك الزمن العتيق، يهز بها اللذائذ التي تدلّت أغصانها في نفوس الرجال فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ابنَ آدم، إنما أنت أيام، كلما ذهب يوم، ذهب بعضك**»[2]، لست قطعةً واحدةً؛ بل مجموعة قطع، كل يوم تُرسَل قطعة منك إلى اليوم الآخر، وعن قريب ستتجمّع تلك القطع إما في جنّة، وإما في نار!

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه.

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤/ ٥٨٥).

وفكـرة الترحّـل هـذه تطـرق ذهـن محمد بـن واسـع فيصوغهـا بطريقته الفريدة! يصفها هشـام بن حسـان فيقول: كان محمد بـن واسـع إذا قيـل لـه: كيـف أصبحـت يا أبـا عبـد الله؟ قـال: «**ما ظنك برجل يرحـل كل يوم إلـى الآخرة مرحلـة؟**»(١)، هي رحلـة عند محمد بـن الواسـع، وكل يوم يقترب فيها من مقصده!

وقيل له ذات يوم: كيف أصبحت أبا عبد الله؟ قال: «**قريبًا أجلي، بعيدًا أملي، سيئًا عملي**»(٢).

وإذا كان الحسن جعل الإنسـان كأوراق التقويم الذي يُنزع منه كل يوم ورقة، فابن واسـع هنـا جعله مسـافرًا على راحلة، يقطع كل يوم مسافة باتجاه المصير المحتوم!

وقد كان محمد بن واسع مشغولًا بالارتحال عن الحياة، لدرجة أنّهم كانوا يرونه في المنام مرتحلًا! فقد جاء أحدهم إلى مالك بـن دينار وروى لـه رؤيا رآهـا في المنـام، فقال: «**يا أبـا يحيى رأيت البارحـة كأن مناديًا ينـادي فيقول: يا أيها**

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٣٤٨).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٣٤٦).

الناس الرحيلَ الرحيلَ! فما رأيت أحدًا يرتحل إلا محمد بن واسع» قال: فصاح مالك صيحة وخرّ مغشيًّا عليه[1].

إنه المشغول بهذه الرحلة المخيفة! الرحلةِ إلى الدار الآخرة!

أما سفيان الثوري فلا يرضى بالمرحليّة ولا بالتجزيء، بل يفاجئك بالموت! ذلك الذي يهجم عليك فيدهشك هجومه! يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا!**»[2].

وكأنه لا يرى إنسانًا يسير على وجه هذه الحياة إلا ويسمع شخيره يدوي! الكل نيام، ولا يستيقظون إلا على همس الموت، أنْ هيّا استيقظ فقد حان وقت ذهابك للآخرة! وما أفجعها من يقظة!

وكان سفيان ـ ورضي الله عن سفيان ـ ممن شدَّ مِئزَرَه في الحياة استعدادًا للموت! وكان يقول فيما يقول: «**لو أن البهائم تعقل من الموت ما تعقلون؛ ما أكلتم منها سمينًا**»[3].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٣٤٦).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٥٢).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ٣٩٢).

يقول: إن البهائم ستهزل وتغدو نخرة العظام لشدّة ما تشعر به من خوف لذكر المـوت، ولكنها لا تعقل! والمصيبة في هذا الإنسـان العاقل الذي يقضي نهـاره لعِبًا وليله طَرَبًـا.. والموت يرقبه، واللحظة الأخيرة تقترب منه شيئًا فشيئًا..

وللحـق، فليس سـفيان وحده من شـد مئـزره، إنه جيل بأكمله، كان الموت منهم ببال، فشدوا له المئزر، وجدّوا في المسير..

رعـب القيامـة

اذكر انكماش جلدتك

وأنـت تسمع شهيق جهنّم!

رعب القيامة

إذا كان ذاك الخوف والذعر والهلع تملّك قلوبهم رحمهم الله من الموت وهو إعلان الانطلاق إلى الدار الآخرة، فكيف سيكون خوفهم وذعرهم وهلعهم من القيامة وهي إعلان الوصول إلى الدار الآخرة؟! كيف ستكون خيالات يوم القيامة في أذهانهم؟! كيف ستظهر القيامة في كلماتهم؟! وما مقدار الرعب الذي ستصبّه القيامة في حياتهم؟!

الأهوال

يحدثنا ابن إسحاق أنّه سمع الفضيل بن عياض يقول: **«والله لأنْ أكونَ هذا الترابَ أو هذا الحائطَ أحبُّ إليّ من أن أكون في مِسْلاخِ أفضلِ أهل الأرض اليوم»**![1].

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٨/ ٤٣٢).

ولعلّ شيئًا من الغموض يحف كلام الفضيل، فما الذي يمنعه من أن يتمنى أن يكون أفضل أهل الأرض؟ ولكن إذا عرفنا هلعه من القيامة، والورود على الله، علمنا أنّه يعني بذلك أن أسوأَ أهل الأرض وأفضلَهم قادمون على الله.. فقضيّته قضية هذا القدوم! ومشكلته مشكلة هذا الورود! فهو لا يتمنّى إلا شيئًا واحدًا، يتمنى أنّه لم يُخلق! فقد قال فيما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**لو خُيّرتُ بين أن أُبعثَ فأدخُلَ الجنة وبين ألّا أبعث؛ لاخترت ألّا أُبعَثَ**»[1].

فهذا هو الفضيل، المرعوب من البعث والنشور، وهو الذي ملأ الحياة صلاة وذكرًا ودعاءً، ومع ذلك فهو لا يتمنى دخول الجنة ما دام أنه في رحلته إليها سيمر على يوم القيامة! بل يتمنى أنه لم يكن شيئًا مذكورًا، يتمنى ألا يُبعث، ألا يرى الصحف تتطاير، ألا يرى الصراط يضطرب فوق متن جهنّم!

وفي موطنٍ آخَرَ يقول الفضيل: «**ما أغبط ملْكًا مقربًا، ولا نبيًّا مرسلًا، يعاين القيامة وأهوالها! وما أغبط إلا من لم يكن شيئًا**»![2].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٨٤).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٨/ ٤١٩).

وهو يعني أنه لو خُيِّرَ بين أن يكون ملَكًا أو نبيًّا أو عدمًا، لاختار أن يكـون عدمًا لا وجود له، حتى لا يمرّ بأهوال يوم القيامة!

وهـذه فكرة لا أظنّها مرّت بنا، ولا استشـعرناها في سـياق قراءتنـا عن يوم القيامة! وهو ولا شـك ضعف فـي تصوّر تلك الأهوال، وتلـك المرحلـة المفجعة من مراحل الكـون! مرحلة العرض النهائي لدخول الجنة والنار!

مه أيها الرجل؟

لنَترُكْ الفضيل في محراب دهشـته، ولنَسِـرْ نحـن في زمن التابعين ونسمع القيامة في همهماتهم ومواعظهم!

فهذا أبو سـليمان الداراني بنبرة متهدّجة يشرح لنا شيئًا من تصوّراته: «**إذا قال الرجل لأخيه: بيني وبينك الصراط، فإنّه ليس يعـرف الصراط! فلـو عرف الصـراط لأحـب ألا يتعلـق بأحد، ولا يتعلق به أحد**»[1].

إن تأمّلك في شـأن الصراط، يجعلك تعيد ترتيب كلماتك عن يوم القيامة، فالقيامة رعـب متواصل، لا تتمنى أن تقف في

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/ ٢٦١).

عرَصاتها مستقضيًا حسنة، أو طالبًا حقًّا من أحد.. هكذا يشرح الداراني، وكأنّه يوجّه إلى كثرة العفو في الدنيا، استجلابًا للعفو الأخروي من الله تعالى.

وقريب مما قاله الداراني ما قاله محمد بن سيرين، فإنّه سمع رجلًا يسب الحجّاج بن يوسف، طاغية العهد الأموي، فأقبل عليه فقال: «**مه أيها الرجل؟ إنك لو وافيت الآخرة؛ كان أصغر ذنب عملته قط أعظم عليك من أعظم ذنب عمله الحجاج، واعلم أن الله حكم عدل إن أخذ من الحجاج لمن ظلمه، فسيأخذ للحجاج ممن ظلمه، فلا تشغلنّ نفسك بسبّه**»[1].

وكأن ابن سيرين يعيد صياغة عبارة الرسل عليهم السلام يوم القيامة «**نفسي نفسي**»، فلن يشغلك في ذلك اليوم العصيب ذنب الحجاج ولا غير الحجاج، فأقل ذنب اجترحته أنت أعظم عليك في ذلك اليوم من طغيان الحجاج بن يوسف الثقفي، وكل النفوس التي أزهقها!

وذاك عبد الله بن وهب يحدثنا عنه خالد بن خدّاش حديثًا ليس بالأغاليط، يقول: «**قرئ على عبد الله بن وهب كتاب**

---

(١) التوبة لابن أبي الدنيا (ص: ٦٠).

أهوال القيامة فخَرَّ مغشيًّا عليه! فلم يتكلم بكلمة حتى مات بعد ذلك بأيام!»[1].

لقد بلغ به الذعر أن مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ وفارق الحياة! لم يطق أهوال القيامة، وكأنّها جرعة تفوق قدرة النفس على مواصلة الحياة! فلفظ أنفاسه وهو يرتعد من القيامة!

رقعة سفيان

أتلمح معي ذلك السائر في أزقة التابعين؟ ونور المهابة يبرق من وجهه! إنه سفيان الثوري..

أترى ذلك الرجل الذي يتبعه حيثما سار؟

إنه رجل لمح مع سفيان رقعة ينظر إليها كل حين، وهو يريد أن يعرف المكتوب في الرقعة!

وقد ظفر بمراده، وقرأ الرقعة! أتدري ما المكتوب فيها؟ لقد كتب سفيان فيها عبارة خطها بحبر الخوف: «**سفيان! اذكر وقوفك بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ**»[2] فلا تمر ساعة إلا ويخرج

---

(١) صفة الصفوة (٢/ ٤٤٣).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٥).

تلك الرقعة ويهدم بها ما شادته الدنيا في نفسه من مباهج!

«**اذكر وقوفك بين يدي الله**» اذكر فقرك وانكسارك وأنت لا تدري أينادى بك إلى جنة أم إلى نار!

اذكر انكماش جلدتك وأنت تسمع شهيق جهنّم!

اذكر انتهاء عهد الضحك، وابتداء عهد التدافع من على شفير الجحيم!

ثم ها هو سفيان في ذلك الدرب العتيق يعبّر عن ذاته، وعن طموحاته، وعن شغفه فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وددت أن أنجوَ من هذا الأمر كفافًا، لا عليّ ولا لي**»!

هذه طموحاته؟ أن يخرج منها كما دخل فيها! وكأنّه يعيد صياغة عبارة ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عندما سُئل عن رجلين، أحدهما: قليل الطاعة قليل المعصية، والآخر: كثير الطاعة كثير المعصية! فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**لا أعدل بالسلامة شيئًا**»![1] فقلة حمل الظهر من المعاصي لا يعدلها عند ابن عباس شيء.

---

(١) السنن الكبرى للنسائي (١٠/ ٤٠٢).

وهذا مطرّف بن عبد الله يلتقط ذات المعنى ثم يقول: **«لأنْ يسألَني الله - تعالى - يوم القيامة، فيقول: يا مطرف، ألا فعلتَ؛ أحبُّ إليّ من أن يقول: لم فعلت؟»**[1].

وهم ولا شك يقصدون ما فضل عن القيام بالواجبات! فلو خُيِّروا بعد أن يكونوا قد أتوا بما أوجبه الله بين نوافلَ كثيرةٍ ومعاصٍ مثلها، أو عدم هذه وهذه.. لاختاروا الثانية لأنهم لا يعدلون بالسلامة شيئًا، والسلامة عدم الذنوب!

احذر

بيت طيني قديم، يكاد أن ينقضّ تهالكًا، لنتوقف عند النافذة وننظر! إنه أبو عمرو الأوزاعي! عظيم من عظماء ذلك الزمن! ممسك ورقة يكتب لأخ له! أتلمح معي تلك الأحرف النورانية، لنتهجاها معًا: **«أما بعد، فقد أُحِيطَ بك من كل جانب، واعلم أنه يُسار بك في كل يوم وليلة، فاحذر الله، والمقام بين يديه.. والسلام»**[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤/ ١٩٠).

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ١٩٠).

توهجُ مصباح الغرفة أرانا هذا القدر، ويكفينا هذا القدر من الرعب! «**فاحذر الله والمقام بين يديه**» كل شيء بعد ذلك له قصة، ولكن قصة الوقوف بين يديه من أخوف القصص! الوقوف ليسألك عن كل صغيرة وكبيرة هذه تكفي لتوقفك عن اللهاث وراء دنيا!

«**المقام بين يديه**» هذه الفقرة شيَّبت نواصيَ التابعين، وعبثت بمعنى الحياة في نفوسهم، وهي المسؤولة عن كميات الدمع التي سُفحت في شوارع التابعين المجيدة!

رعب الوقوف، وخجلة السؤال، وعظمة الصوت، وخزي الذكريات! هذه التفاصيل خلعت تلك القلوب!

قال إبراهيم بن الأشعث: سمعت الفضيل بن عياض وقد أفَضْنَا من عرفات يقول: «**واسوأتاه منك وإن عفوت**»[1].

فهناك خوف، وهناك حياء يوازيه! فالخوف من مغبة الذنوب في ذلك اليوم العصيب أحرق نصف لذائذ الحياة الدنيا، والحياء من الوقوف بين يدي الله وإن عفا وإن تجاوز.. أحرق النصف الآخر! فهم يعيشون بين حريقين عظيمين!

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٨/ ٤٣٢).

التقاطات ابن عيينة

وهذا ابن عيينة، لديه ولع خـاص بالتقاط ما له علاقة بيوم القيامـة، فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال هارون أمير المؤمنين لأبي إسـحاق الفزاري: أيها الشيخ، إنك في موضع من العرب! قال: «**إن ذلك لن يغنيَ عنِّي من اللهِ شيئًا يوم القيامة**»[1].

وهذا كمـن يريد أن يشـغل إنسـانًا بشـيء حجمه بقدر جسـر الرُّصَافة، فإذا به مشغول بشيء حجمه بقدر بغداد والكوفة والبصرة مجتمعـة! فمـا هـو ذلـك الموضـع وتلـك المكانـة التي يشـغلها أبو إسحاق الفزاري إذا ما قورنت بيوم القيامة وأهواله! لا شيء.

وكان أبو إسحاق هذا لا يأبه بنفسـه ولا بالآخرين، أشغلته القيامة عن أن ينتبه إلى تلك التفاصيل الدقيقة! فهذا ابن عساكر يروي بسـنده قصّة عجيبة، يقـول: عن مخلد بن الحسـين قال: غزونا مع عبد الملك بن صالح الهاشمي فأقبلنا من غزونا فمر بنـا أبو إسـحاق الفـزاري فأسـرع ولـم يسـلم! فالتفـت إلـيّ عبد الملك مغضبًا فقال لي: يا مخلد مر بنا أبو إسـحاق فأسرع ولم يسلم! فقلت له: أعز الله الأمير لم يرك. فردها ثانية، وتبين

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٢٨٧).

لي فيه الغضب، فقلت: أعز الله الأمير أتأذن لي أن أحدثك رؤيا رأيتها له؟ قال: حدث. قال: «**رأيت كأن القيامة قد قامت والناس في ظلمة وفي حيرة يترددون فيها، فنادى منادٍ من السماء: أيها الناس اقتدوا بأبي إسحاق الفزاري؛ فإنه على الطريق فغدوت إليه فأعلمته فقال لي: يا مخلد لا تحدث بهذا وأنا حي**»، ولولا غضبك أيها الأمير ما حدثتك[1].

وأبو إسحاق الفزاري من أئمة السنة، قال عنه ابن المبارك: «ما رأيت رجلًا أفضل من ابن إسحاق» وقال عنه ابن حبان: «كان من الفقهاء والعباد».. ويجيء هارون رَحِمَهُ اللهُ يريد أن يشغله بوهم المكانة والمنزلة، فيكون الرد كما رأيت: «**إن ذلك لن يغنيَ عنِّي من اللهِ شيئًا يوم القيامة**»[2].

وكأنّ أبا إسحاق ينظر بطرف خفي إلى الفضيل بن عياض وهو يحدّث أصحابه عن يوم القيامة فيقول: «**كم من قبيح تكشفه القيامة غدًا**»![3]، فأي وهم مكانة أو مجد يبقى بعد ذلك الكشف والفضح؟

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٧/ ١٣٣).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٢٨٧).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ١٠٨).

كم من قبيح سترته الدنيا بزيفها، وحجبته الدنيا بوهمها، فجاءت القيامة الخافضة الرافعة! فبيّنت حاله، وحددت مآله!

ليوم القيامة قدرة عجيبة على أن يلغي عن الناس الرتوش والمساحيق التي وضعوها لأنفسهم في هذه الحياة الدنيا! إنّه يظهر الناس على حقائقهم ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]..

وهاهنا التقاطة أخرى من التقاطات سفيان بن عيينة يحدثنا فيها عن بشر بن منصور الزاهد وأنّه قال له يومًا: «**أقل من معرفة الناس؛ فإنه أقِلّ لفضيحتك في القيامة**»[١].

وها هي الفضيحة الأخروية تظهر هنا أيضًا في منقولات ابن عيينة، وكأنّه احتفظ في بيته بدفتر يودعه كل ما يتعلّق بالانفضاح القادم، خوفًا وحذرًا!

ومن بين دفاتر ابن عيينَة، يظهر لنا مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ، بعبارة ملؤها نور الطمأنينة يخبرنا فيه بخبر من أجمل ما يسمعه المتقون، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «**عُرس المتقين يوم القيامة**»[٢].

---

(١) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا (ص: ٦٥).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٣٧٩).

إنها الفرحة الأبدية، والسعادة السرمدية، والهناءة الحقيقية!
إنه الموعد مع الفرح الذي يشبه العرس، والعرس الذي يشبه الفرح.. وهي صورة وإن كانت حقيقية، إلا أنها قليلة الظهور في ذلك الزمن القديم، فقد أشغلتهم القيامة في جانبها المهيب المرعب، عن القيامة في جانبها السعيد المفرح.

فهذا مطرّف بن عبد الله يختصر لنا سبب تلك النصوص التي كثرت عنهم في شرح القيامة المرعبة، وقلة النصوص التي وردت عنهم في الكلام عن القيامة المفرحة، فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«لقد كاد خوف النار يحول بيني وبين أن أسأل الله الجنة»**[1].

هنا السبب، لقد غلبت عليهم صورة القيامة بأهوالها وفجائعها، عن أي شكل من أشكالها، وأي حقيقة أخرى من حقائقها.

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤/ ١٩٤).

فقـه الأهـم

فكان من شأن التفكر لديهم
أن يفرّغوا له ساعات من ليلهم أو نهارهم،
لا يزيدون فيها على أن يتفكروا
في ملكوت اللّه ونعم اللّه وعظمة اللّه..

فقه الأهم

هي أمور من أمور الخير، نراها صغيرة، فلا نأبه بها، ويراها أصحاب ذلك الزمن كبيرة جليلة..

وأمور أخرى نراها كبيرة، فإذا بهم لا يرونها كذلك!

ورِتاجُ هذا الباب الذي يُغلق بـه ويُفتح: الأَوَّلى والأَحْرى، الأهم! فليس دائمًـا الأهم هو ما نظنه الأهـم، ولا الأقل أهميّة ما نظنه كذلك!

وهذا باب ينبئك عن رهافة تلك النفوس، وإدراكها لما هو أعمق من ظاهر الأمور!

فلْنَلِـجُ هـذا المزدلف ونتحسـس خبايـاه؛ لنُدرِكَ شـيئًا من فقههم رحمهم الله، ولننظر كيـف كان رجال ذلك الزمن يزِنون الأمور، وما هو معيـار الأفضلية في الأعمال لديهم، علّنا نقبِس من هداهم شيئًا يضيء لنا الدرب!

البس ما شئت

هنا يظهر إمام التابعين، ومن قيل فيه: إنّه أفضلهم! سعيد بن المسيّب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليعطينا دروسًا في فقه الأهم!

فها هو يبتدئ درسه بعبارة ذات أبعاد لامتناهية، فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «**من حافظ على الصلوات الخمس في جماعة فقد ملأ البر والبحر عبادة**»[1]، فالسائد في الأذهان عدم التوقف كثيرًا عند الفرائض حينما يُذكر العُبّاد، وإنما يُتحدث عن الرواتب والنوافل.. إلا أن سعيدًا يحب أن يلفت النظر إلى المغفول عنه، ويسهب في الحديث عن المسكوت عنه! فالصلوات الخمس أعظم ما يمكن للعبد أن يقوم به، وأحب الأعمال إلى الملك سبحانه، إذ لو أنّ غيرها أحب إليه منها لجعل ذلك الغير فرضًا، وذلك الفرض نفلًا!

مرّ به رجل يلبس جبّة حسنة، فسأله عنها معجبًا بها، فإذا بذلك الرجل يبدي تحرّجًا من لبسها، لأنّها تنتمي إلى ما يمكن وصفه بالبذخ والترفّه! فقال له سعيد: «**أصلِحْ قلبَك والبَسْ ما شئت**»[2].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ١٦٢).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ١٧٣).

فليس الشأن لدى سعيد في لباس الجسد، وإنما الشأن في لباس التقوى ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فأنت ترى سعيدًا يطفئ ذلك المعنى الظاهري، ويوجّه إلى الاعتناء بالمعنى القلبي! «**أصلح قلبك**» وما وراء ذلك يهون أمره.

ويظهر سعيد مرة أخرى في شارع التابعين، ويرمق مع صاحب له اسمه صالح بن محمد فتيانًا من بني ليث كانوا عبادًا، يروحون بالهاجرة إلى المسجد ولا يزالون يصلون حتى تحين صلاة العصر، فقال صالح لسعيد بن المسيب: «هذه هي العبادة لو نقوى على ما يقوى عليه هؤلاء الفتيان»! علم ساعتها سعيد أنّه بحاجة إلى تكرار مبدأ حقائق الأمور، فقال رحمه الله تعالى: «**ما هذه العبادة، ولكن العبادة التفقه في الدين والتفكر في أمر الله تعالى**»[1].

فهنا ينيط حقيقة العبادة بالتفقه والتفكر، وليس ذلك تهوينًا من شأن تلك الصلوات، ولكن حتى توضع الأمور وفق قانونها.

ولا تحسبنّ كلمة «**التفكر**» هنا أتت عرضًا هكذا، لتزيين اللفظ! فالحقيقة أن للتفكر شأنًا كبيرًا لديهم! فهذا يوسف بن

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ١٦٢).

سعيد يسأل عليّ بن بكار عن إبراهيم بن أدهم أكان كثير الصلاة؟ فيجيب علي: «**لا! ولكنه صاحب تفكر يجلس ليله يتفكر**»[1].

فكان من شأن التفكر لديهم أن يفرّغوا له ساعات من ليلهم أو نهارهم، لا يزيدون فيها على أن يتفكروا في ملكوت الله ونعم الله وعظمة الله..

ابدأ برغيفيك

للسلف اعتناء خاص بمسألة طلب الرزق، فهم لا يعدونها قضية هامشية، بل هي عندهم عبادة من العبادات، ولا ينبغي الانصراف منها إلى غيرها، إلا بعد استيفاء شأنها!

ولتفهم ما أعنيه استمع إلى أبي سليمان الداراني وهو يقول: «**ليس العبادة عندنا أن تصُفَّ قدَمَيك، وغيرك يفُتُّ لك، ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبّد**»[2].

ابدأ برغيفيك، ثم بعد ذلك انتقل إلى ما شئت من أبواب العبادة، لأن طلب الرزق الحلال واجب، ولا تقوم حياتك

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ١٧).

(٢) صفة الصفوة (٢/ ٣٨٤).

وحياة من تعول إلا به، والواجب مقدم على النافلة! فها هو فقه الأولى يظهر في هذا الشأن لدى أبي سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وترى سفيان الثوري وهو يشير إلى الفكرة ذاتها فيقول: «**انظر درهمك من أين هو؟ وصلّ في الصف الأخير**»(١)، وهذا تأنيب منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ للذين تراهم يسابقون إلى الصف الأول، ثم لا ترى ذلك الحرص منهم فيما يأكلون ويشربون، فلا يسابق لنوافل الطاعة من لا يتورّع عن شوائب المحرم.

وهنا إبراهيم بن أدهم يطرق الفكرة ذاتها فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**أطِبْ مطعمَك ولا عليك ألّا تقوم بالليل وتصوم بالنهار**»(٢).

ويقول في سياق مشابِه: «**تريد تدعو؟ كُلِ الحلالَ وادْعُ بما شئت**»(٣).

وأنت ترى أن مواطئ أفكارهم قد اتسقت على هذا الأمر، واتفقت على هذا الشأن، فقد كانوا يعظّمون اللقمة الحلال، ويرونها من الغايات التي تصغر دونها كثير من الشؤون والأحوال!

---

(١) مختصر شعب الإيمان (ص: ٨٣).

(٢) الجوع لابن أبي الدنيا (ص: ١٥١).

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٦/ ٢٩٩).

ومـن فقهـاء الأولويـات فـي تلـك الأزمنـة محمد بـن المنكدر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد نقل لنا الناقلون من دقيق فقهه ما يطول حوله التأمّل!

يحكي لنـا محمد بـن المنكدر عن ليلـة من الليالـي أمرها عجيب! يقـول: «**بات أخي عمـر يصلّي، وبتُّ أغمـز قدمَ أمي، وما أحبُّ أنّ ليلتي بليلته**»[1]!

عملان، أحدهما: له في قلوب الناس فخامة معهودة وهي الصلاة بالليل، والآخر: يظن الناس أنّه عمل رتيب نصنعه دون استشـعار مكانته، فيأتي ابن المنكـدر ليقلب المعادلـة، ويرينا ما لـم نـره فـي الوهلـة الأولـى! فغمْـزُ قـدمِ الوالدة عنـد ابن المنكـدر أعظم من قيـام الليل! أشـعرتَ الآن بشـيء كالتيقظ يحدث في نفسك؟

خـذ الثانية: يسـأله أحدهـم أي العمل أفضـل؟ منتظرًا أن يذكر قيام الليـل أو صيام النهار أو تلاوة القـرآن أوِ غيرها من الأعمال.. فإذا بالتقاطة فريدة لابن المنكـدر تتوجّه إلى زاوية

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٥/ ٣٥٩).

يندر أن تخطر ببال، يجيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ سائله فيقول: «**إدخال السرور على المؤمن**»[1]..

ما أجمَلَها من رُوحٍ! تلك التي تعُدُّ الابتسامة التي تزرعها على ثغر مؤمن عملًا فاضلًا! كيف توصّلت تلك الزهرة الشذيّة إلى عمق ابن المنكدر، فغرست نفسها هناك، ليعبق الشذى؟

قرة العين

كانوا رجال المحصّلة إن صح التعبير! أو رجال المنجز النهائي! فليست قضاياهم في الصِّبْغة الظاهرة، وإنما في الحقيقة الباطنة!

فهذا سلام بن أبي مطيع يصف لنا يونس بن عبيد بوصف عجيب فيقول: «**ما كان يونس بأكثرهم صلاةً ولا صيامًا، ولكن لا والله ما حضر حق من حقوق الله إلا وهو متهيئ له**»[2].

---

(١) الطبقات الكبرى ـ متمم التابعين ـ محققًا (ص: ١٩٠).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ١٩).

هذه صفة الرجل الذي يعنيه أمر المحصّلة النهائية! لا يحضر حق من حقوق الله إلا وهو متهيئ له! ونعمت الصفة والله!

وها هو غيلان يحدثنا عن مطرّف بن عبد الله أنّه: «**كان يلبس المطارف والبرانس، ويركب الخيل، ويغشى السلطان**» وهذه أمور مباينة في ظاهرها لعمل أهل الآخرة، ولكن غيلان يعقّب فيقول: «**ولكنه إذا أفضيتَ إليه، أفضيتَ إلى قُرة عين**»[1]، فليست الأمور لدى يونس ومطرّف ومن في بابتهما من أئمة التابعين أمورَ ظواهرَ، بل هي أمور بواطن، وقضايا قلوب، ومسائل تتجاوز القشر إلى اللب! وليس في ذلك استنقاص من العمل، ولكن استعظام لما شرع الله لأجله العمل، ألا وهو أمر القلب وحياة القلب وشأن القلب!

اعبده حيث شئت

وما زالوا رحمهم الله بمعاول كلماتهم ينزعون طبقة الدنيا المتكلّسة فوق الأعمال، ليصلوا إلى العمق، إلى الحقائق، إلى مُرادات الله!

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤/ ١٨٩).

ذكر ابن أبي جميل عن ابن المبارك أنه سأله رجل عن الرباط فقال: «**رابط بنفسك على الحق حتى تقيمها على الحق؛ فذلك أفضل الرباط**»[1].

رابط نفسك على الحق! هنا قضية القضايا، وما عدا ذلك رتوش..

وهذا رجل يسأل محمد بن النضر الحارثي عن المكان المناسب لعبادة الله، فيأتي الجواب مشيرًا إلى جهة أخرى أحق بالاهتمام، فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**أصلِحْ سَريرتَك واعبُدْه حيث شئت**»[2].

لا تلتفت لشكليّة المسألة، اتجه إلى العمق، اتجه إلى السريرة، وما في قلبك من حقائق الإيمان، فإن صحّت السريرة، فستصح معها (أين وكيف ومتى) بشكل تلقائي!

وما أجلّ ما سنختم به هذا الكلام، عبارة ترهق القلب، وتصنع فيه ما تصنع من الحركة والدأب! يقول عمرو بن ميمون بن مهران

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ١٧١).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٢٢٢).

عن أبيه ميمـون: «**ما كان أبـي بكثير الصيـام والصـلاة، ولكنه كان يكره أن يُعصى الله**»[1].

هذا الكره أعظم من كل عمل! استقباح أن يُعصى الله أمر جليـل، وميمون بـن مهـران جعلـه ممـا يلـي قلبـه، وتحقّبه وتشرّبه! فعظم ميمون، وعظم معه ذلك الجيل في العالمين.

(١) صفة الصفوة (٢/ ٣٦٠).

زاويــة خاصّــة

فبقدر علمك بالله، ومعرفتك لشرعه
تسارع إليك عقوبات التفريط،
ومؤاخذات الذنوب!

زاويـة خاصّـة

نعم كانوا يتشابهون في شـأنهم العام، ثم إن هذا التشابه لا يلغي استقلاليتهم وتميّزهم في شؤونهم الخاصّة، وآرائهم الفريدة!

فإنهـم وإن كانت جامعتهم التـي تخرّجوا فيهـا هي جامعة الصحابة رضوان الله عليهم، إلا أنّ كل واحد منهم يُعد مدرسةً متفرّدةً، لها آراؤهـا الخاصة، ورؤيتها المتميّـزة، ووجهة نظرها المستقلّة، وحكمتها البالغة!

وفـي بعـض المـرات لا يكون ذلـك الـرأي خاصًـا، وإنما طريقة التعبير عنه هي التي تحتوي شيئًا من الخصوصيّة، وعلى أي حال، فهذا فصل يمسّ فقه تلك النفوس، وتأمّلاتها الدقيقة، وكيف اسـتطاعت أن تكوّن بمفردها ثـم بمجموعها زكاءً عامًّا، وتثويرًا لنصوص الشريعة! وهزًّا لجِذعِ تلك النصوص الباسقة، مما جعـل ثمـار الإيمان والتقـوى تتسـاقط على ذلـك الجيل، ويصلنا من خيرها ما يصلنا..

حكم الداراني

لأبي سليمان الداراني تأمّلات نافذة، وتفكر خاص، مما ينبئنا عن شخصيّته التدبريّة، دقيقة الملاحظة! فها هو يلفت النظر إلى شأن المداومة على العبادة، وأنها شيء غير العبادة ذاتها، فالعبادة لها أجرها، والمداومة لها فضلها وأجرها! يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**للمداومة ثواب، وإنما أنا وأنت ممن يقوم ليلة وينام ليلتين ويصوم يومًا ويفطر يومين وليس تستنير القلوب على هذا**»[1]، فصلاة ليلة أمر فاضل له أجره، ولكن الزكاء والنور لا يتحصّله العبد بهذا العمل المتقطّع، فالمداومة هي التي تنتج تلك المقامات والحالات، وفي الحديث عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ سُئِل أيُّ العمل أحب؟ فقال: «**أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ**»[2] وبيّنت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا حاله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فقالت: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَثْبَتَهُ**»[3]، وأجابت من سألها عن عمله فقالت: «**كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً**»[4].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/ ٢٧١).

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

فمن هذه المشكاة كان يقتبس أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ. فالثبات على عمل الخير ومداومته يخلف في النفس آثارًا إيمانية لا يدركها ذلك المتذوّق الذي لا يستطيع على مداومة الأعمال صبرًا.

ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وصف عجيب لحالات لا يدركها إلا أهل المعرفة: «**العارف إذا صلى ركعتين لم ينصرف منهما حتى يجد طعمهما، والآخر يصلي خمسين ركعة ـ يعني من ليس له معرفة ـ لا يجد لها طعمًا**»(١).

وهو يلفت النظر هنا إلى ثواب المداومة أيضًا، وإلى فكرة تراكم أعمال الخير! وأن حلاوة المناجاة لا يستشعرها القلب إلا بعد أن يديمها، ويكثر منها.

ومن نصوص أبي سليمان المريحة جدًّا، والتي ابتهجت كثيرًا عند وقوفي عليها قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**من عمل شيئًا من أنواع الخير بلا نية أجزأته النية الأولى حين اختار الإسلام على الأديان كلها؛ لأن هذا العمل من سنن الإسلام ومن شعائر الإسلام**»(٢).

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/ ٢٧٢).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/ ٢٧١).

ولا شك أنّه لا يقصد النيّة التي تحدد نوع العمل وماهيَّته، وإنّما النيّة التي تحدد مقصد العمل وإرادته! فالإسلام بمجمله كالصلاة (مثلًا) بمفردها.. فكما أنّك لا تنوي إذا أنشأت صلاة أنّك ستركع وتسجد وتقرأ الفاتحة.. إلخ لأن هذه التفاصيل تدخل في معنى الصلاة التي نويتها منذ البدء، فكذلك نوافلك التي تؤديها وأعمال الخير التي تقوم بها تُعَدُّ جزئيات دين الإسلام الذي دخلته واعتقدته وآمنت به. فأفرحني هذا النص لعلمي بكثير من الأعمال التي قد يعملها العبد دون استشعار لمعنى النيّة والقصد لله تعالى، والله واسع المغفرة.

وهنا حكمة خاصة في الصلاة وقيام الليل، وعامة في التطوّعات وأعمال الخير، يقول رحمه الله تعالى: «**إذا لذَّت لك القراءة فلا تركع ولا تسجد، وإذا لذَّ لك السجود فلا تركع ولا تقرأ، الزم الأمر الذي يُفتَح لك فيه**»[١].

ومما يُعَدُّ من هذا المعنى العبد الذي يُفتَح له في قراءة القرآن، فلْيَأخُذْ نصيبَه الوافر مما فُتِح له فيه، والثاني الذي

(١) صفة الصفوة (٢/ ٣٨٥).

استطاب صيام النوافل، والآخر الذي يتيسّـر له من الذكر ما لا يتيسّر لغيره، وهذا فيما يعز الجمع فيه، أما إذا تيسر الجمع فهي أبواب خير فلْيطرُقْ العبد منها ما استطاع.

ويقـول رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيّنًا السـبب فـي أنّ البعض تسـارع إليهم العقوبة دون بعض: «**كلما ارتفعت منزلة القلب كانت العقوبة إليه أسرع**»(١).

فبقدر علمك بالله، ومعرفتك لشـرعه تسارع إليك عقوبات التفريط، ومؤاخذات الذنوب!

أما الذنوب التي يكون سـببها غيرة على الشريعة، وغضب لله، فهذه شـأنها أخف، بـل قد يتجـاوز عنهـا الله لأوليائه، كما تجاوز لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فَقْأَه عين ملك الموت، وأَخْذَه بلحية أخيه النبـي، وإلقـاءه الألواح؛ لأنهـا أعمـال نتجت عن عبـد صالح محب لربـه، وكان مصدرها الغضب له، والغيرة لدينه، ولشـيخ الإسلام تقريرات نافعة في هذا الباب، فلْتُراجَعْ في مظانِّها.

ومن عبـارات أبـي سـليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ التـي إن قرأتها شـعرت ببراعم الرضا وهي تنمو في روحك، قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**من صدق في**

---

(١) صفة الصفوة (٢/ ٣٨١).

ترك شـهوة ذهب الله بها من قلبه، والله أكرم مـن أن يعذب قلبًا بشهوة تُركت له»[1].

وهي عبـارة تفتح آفـاق الأمل فـي النفـس المؤمنة التي أرهقتها الذنوب!

فما على العبد إلا صدق اللجأ إلى الله في أن يعافيَه من تلك الشـهوات، ويصابر نفسـه ما اسـتطاع على تركها، والله غفور رحيم.

ونختم هذه الكوكبة الفريدة من الحكم بأهم حكمة وجدتها فيما دُوِّنَ في سـيرة هذا التابعي الجليل، قـال رَحِمَهُ اللَّهُ: **«رُبَّمَا يقع فِي قلبي النكتة مـن نكت الْقَوْم أيامًا فلا أقبل منه إلا بشـاهدين عدلين الكتاب والسنة»**[2].

فليس كل ما يخطر بالبال يكون حقًّا، فلا يقبل رَحِمَهُ اللَّهُ من الخواطـر الإيمانيّـة، والسـوانح الروحانيّة إلا مـا كان له في الكتاب والسنّة شاهد، فليس الأمر بما تهوى النفوس، وتميل إليه الأفئدة!

---

(١) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ٢٨٣).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٤/ ١٢٧).

دويرات ابن المنكدر

التابعي الجليل محمد بن المنكدر يلاحظ أمرًا، فيعلنه بقوله: «**إن الله يحفظ العبد المؤمن في ولده وولد ولده، ويحفظه في دويرته ودويرات حوله، فما يزالون في حفظ أو في عافية ما كان بين ظهرانيهم**»(١)، فحفظ الله كما يراه ابن المنكدر ليس نقطة تصيب العبد، بل دائرة تحيط به، تتسع وتضيق، وقد يبلغ من اتساعها أن تشمله وأهل بيته، بل وجيرانه! وهذا من بركات عباد الله الصالحين! فلك أن تتخيّل دائرة الحفظ تلك وهي تحيط بأحياء ومدن يسكنها أولياء الله، فيحفظ الله بصلاحه أممًا حوله!

عُقَيبة مالك

أما مالك بن دينار فيقوده تأمّله العميق إلى ملاحظة إيمانيّة عجيبة! يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ما من أعمال البر شيء، إلا ودونه عُقَيبة، فإن صبر صاحبها، أفضت به إلى رَوح، وإن جزع، رَجَع**»(٢). وهذا مما ينتج عن طول تأمّل في النفس وفي الغير، والعُقَيبة

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٣٧٩).

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٥/ ٣٦٣).

تصغير عقبة، ويعني بها رَحِمَهُ اللهُ ما يشعر به العبد عند دلوفه إلى عمل من أعمال الخير والبر لم يكن له فيه نصيب، فيجد من نفسه عنتًا وضعفًا، وتدهمه الملالة، فهذه هي العقيبة التي لو صبر عليها، واستمرّ في عمله لأفضت به إلى رَوح وسعة واستلذاذ بالعمل واستطعام لحلاوته! أما إذا ركن لذلك الضعف فكأنه عاد إلى مربّع الفتور، وعدم ارتياض نفسه على الطاعة.

أخوات عروة

عروة بن الزبير يمسك عدسة التأمّل وينظر فيها إلى الحياة والأحياء، ثم يقول لك: «**إذا رأيت الرجل يعمل الحسنة فاعلم أن لها عنده أخوات، وإذا رأيته يعمل السيئة فاعلم أن لها عنده أخوات؛ فإن الحسنة تدل على أخواتها، وإن السيئة تدل على أخواتها**»[1]، هذا ما يمكن أن نُسمِّيَه باتساق الشخصية، وهو أنّه من شبه الممتنع أن تجتمع النقائض الإيمانيّة في شخص، فمن ظهر منه الخير، فلا بد وأن لديه من الخير أضعافَ ما ظهر منه، والشر مثل ذلك! وهذه ملاحظة يدركها الناس في ضمائرهم وإن لم يبينوا عنها بألسنتهم، فما الذي يدعوك لتزكية إنسان

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ١٧٧).

لا تعلـم عنه من أمـور الخير إلا خصلـة أو اثنتين؟ غيـر أنّه قد استقرّ في نفسـك أنّه لا يقـع للإنسـان أن يتمثـل بخصلة خير مفـردة، فالنفـوس لم تُجبَـل على إطاقـة وجه واحد مـن الخير حُف به أضعافه من الشر!

ومن باب اسـتثمار هذه الحكمة: ينبغي على المرء أن يتيح للطاعـة أن تنـاديَ علـى أختهـا، فيضيـفَ إليها ما يشـاكلها من أعمـال البـر؛ لأنّ سـهولة الطاعـة علـى النفس تشـي بسـهولة ما يشـبهها؛ لأنّـه إذا تقاربـت مخـارج الطاعات سـهل جمعها! كمن سهل عليه قيام الليل، فستسهل عليه التلاوة، ثم إذا سهلت التلاوة فباب الذكر مقارب لباب التلاوة فيسـهل أيضًا، وهكذا! وعليه كذلـك أن يُسـكت المعصية عـن أن تنـادي أخواتها بأن يكبتها بالاستغفار والتوبة.

تأملات سفيان

ومن أنـواع الفقـه، أن يأتـي الفقـه والحكمة فـي ثوب من البلاغة والعظمة اللغوية! يقول سـفيان الثـوري رَحِمَهُ اللهُ: «**إذا أراد الله بعبد خيرًا أفرغ عليه السداد، وكنفه بالعصمة**»[1].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٣٣).

هنا تأمّل الإيجاز القريب من الإعجاز، والجمال المتاخم للجلال، والاختصار الدافع للاقتصار!

أترى السَّداد وهو يُفرغ على العبد من فوق، وكأنّ ذَنوبًا من السَّداد والتوفيق والرعاية يُسكب عليه سكبًا، فترى كل أعماله وفق الشرع، فكل ما يفعله له فيه آية محكمة أو سنّة متبعة! ثم ها هي العصمة تكتنفه وتلفّه من حوله فلا يقع بفضل الله في معصية!

كل هذا الخير العظيم يصوغه سفيان في جملتين متسقتين ومعتنقتين! وإذا أراد الله بعالم خيرًا جعله يقول مثل كلام سفيان، أما عمل سفيان وأضراب سفيان فهيهات!

اللهم أفرغ علينا السداد واكنفنا بالعصمة يا رب!

وقد وقفت في حيرة من كلمة قالها هذا السفيان، وكيف اهتدى إلى معناها، وكيف استطاع أن يصوغ مبناها! يقول رَحِمَهُ اللهُ: «**صابروا الأغنياء في الطعام ما بين الشفة واللهاة، فإنه إذا جاز ذلك لم يُعرف ليِّنُهُ من خَشِنِهِ**»(١)، وهذا كلام ينفع الفقراء، وأصحاب ضيق الحال، بل ومن أراد الزهد في الدنيا من أهل السعة، ومعناه أن لذة المأكل الذي يستطيعه الأغنياء دون الفقراء

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/٧).

إنّما يكون في منطقة الفم، فاصبروا على خبزكم اليابس، وزيتكم الرديء في هذه المنطقة القصيرة جدًّا، فإذا ما جاز منطقة اللهاة، تشابهت الطعوم، فليس لأكل الغني هناك فضل على أكل الفقير!

ابتسامة الأوزاعي

ومن اختيارات الأوزاعي السلوكيّة تشديده على أهل العلم فيما ينبغي لهم وما لا ينبغي، فقد قال رحمه الله: **«كنا نمزح ونضحك فلما صِرنا يُقتدَى بنا خشيت ألا يسَعَنا التبسمُ»**[1].

وهو يعني أن العالم يجب عليه أن يخلط علمه بسمت وهيئة يصون بها علمه، وهذا من الوقار ودرء ظنون السوء عن النفس، ولعل هذا المعنى كان قد استقرّ في نفس الأوزاعي، فتفرّع في شؤون عدة، ومن ذلك ما نقله أحمد بن أبي الحواري قال: **«بلغني أن نصرانيًا أهدى إلى الأوزاعي جَرَّة عسلٍ وقال له: يا أبا عمرو، تكتب إلى والي بعلبك، فقال: إن شئتَ رددتُ الجرَّة وكتبتُ لك وإلا قبلتُ الجرَّة ولم نكتب لك. قال: فردَّ الجرَّة وكتب له، فوضع عنه ثلاثين دينارًا»**[2]، ففي مثل هذا العمل

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/ ٤٤).

(٢) صفة الصفوة (٢/ ٤٠٥).

منازعُ، لعل من أهمها ألا يُنقَّلَ عنه أنّه ممن يبذل جاهه بالرشوة! فمع علمه بنيّة نفسه إلا أنّ الناس لا يعلمون شيئًا عن تلك النيّة، فحاطها بمثل هذا التحفّظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وأتذكر في هذا السياق قول الشاعر:

ولو أنّ أهل العم صانوه صانهم ... ولو عظّموه في النفوس لعُظّما

ويروى عن علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ما هو أصل لهذا المذهب: «**إذا تعلمتم العلم فاكظموا عليه ولا تخلطوه بضحك ولا باطل فتمجه القلوب**»[1].

أما ما هو أصل الأصل فما روي عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه رأى على طلحة ثوبًا مصبوغًا فقال: «**إنكم أيها الرهط أئمة يقتدي بكم الناس، وإن جاهلًا لو رأى هذا لقال على طلحة ثوب مصبوغ فلا يلبَسْ أحد منكم من هذه الثياب شيئًا**»[2].

فليس الناس على درجة واحدة، وهذه الحياة قد دسّت في نفوس الناس أهواء وأوشابًا، ومن الكذب والزعم أن نظن الناس قد خُلِقوا منصفين، وأنّ ميزانهم الذهب! لذلك وجب

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٣/ ٢٥٩).

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/ ٤٤).

درء الغيبة وظنون السوء عن النفس، وصيانة العلم وزرع هيبته في نفوس العوام.

ميمون ناصحًا

وهنا ميمون بن مهران رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى بعض عصاة زمنه يتوب، فيعلن للناس عن بعض غدراته وفجراته مما أظلمت عليه لياليه، ظانًّا أن من شروط التوبة التصريحَ بالموبقات، فيقول ميمون لهؤلاء: «**من أساء سرًّا فلْيتُبْ سرًّا، ومن أساء علانية فليتب علانية فإن الناس يعيرون ولا يغفرون والله يغفر ولا يعير**»[1].

فكما أن الله سترك وأنت تعصيه، فتستر نفسك وقد صرت تطيعه، فكما أن الشريعة تريد الحياة أن تتطهر من الذنوب، فهي تريد أيضًا أن تتطهر من أحاديث الذنوب، وذكريات الفسق، وتجارب العصيان! ثم إن الناس إذا سمعوا بماضيك، فلن يرحموك في وقت النزاع والمشاحنة، وسيعيّرونك بذلك الماضي، فالظلم من شيم النفوس!

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٦١/ ٣٦٥).

الخاتمة

اللهم اجمعنا بهم في جنّات ونهر..

في مقعد صدق عند مليك مقتدر..

وصلى الله وسلم على سيّدنا محمد..

الفهرس



شركة دار الحضارة للنشر والتوزيع

ISBN 978-603-8381-33-5

9 786038 381335

المملكة العربية السعودية - الرياض

daralhadarah@hotmail.com

الرقم الموحد: 920000908 الفاكس: 2702719 - 011

@daralhadarah 0551523173

زوروا متجر الحضارة

daralhadarah.net